العقيدة العسكرية في عصر الخلفاء الراشدين
دراسة تاريخية

إعداد
الدكتور / عبدالعزيز بن سليمان المقبل
قسم التاريخ - جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

الملخص

مصطلح (العقيدة العسكرية) من المصطلحات الجديدة المستخدمة في الجيوش المعاصرة، وتتنوع التعريفات لهذا المصطلح، فيُدخل بعضهم مجموع القضايا العسكرية المتنوعة، وآخرون يرون أنها السياسة العسكرية المرسومة التي تعبر عن وجهات النظر الرَّسمية للدولة، ومنهم من يربطها بمنطلقات الدَّولة الدِّينية أو الفكرية التي يتبناها الحزب أو الجماعة السياسية الحاكمة والتي تسعى لتحقيقها، وبعضهم يعطيها وصفًا مجملاً بأنها الفكرة الأساسية للجيش، ومنهم من يرى أنها الخطوط العريضة العامة التي تُحدد أداء القوات خلال عمليات المعارك، في حين أن حلف النَّاتو وبعض الدُّول المتقدمة مزجت جميع هذه المفاهيم مع بعض في تعريفها للعقيدة العسكرية. ويمكن استظهار أن التَّعريف ينقسم إلى شقين هما: (المبادئ، والأساليب)، لذا فيمكن أن نقتصر في البحث على الجزء الأول منه، والمتعلق بالمبادئ أو الأهداف العُليا التي انطلقت منها عمليات الفتح في عصر الراشدين؛ وهذا هو الأساس الذي تتفرع منه جميع المفاهيم والقيم والمنطلقات الأخرى. ومن المعلوم أن العقائد العسكرية في دول العالم تنبثق من المصالح التي تصوغها عقول البشر، لذا فهي تنطوي على الصَّواب والخطأ، ويختلط فيها الحق مع الباطل، وهي عُرْضَةٌ للتغيير المستمر، شأنها شأن القوانين الوضعية، أما العقيدة العسكرية الإسلامية فإنها تنبثق من القرآن والسنة، فمع الثِّقة في سُمو أهدافها فإنها كذلك تتصف بالثَّبات والاستقرار، وهدف الجهاد في الإسلام يفهمه الجندي الصغير قبل القائد الكبير، ويتلخص بإعلاء كلمة الله ﷻ، كما نصَّت على ذلك آيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فلما انطلقت الفتوح في عصر الراشدين ركزوا على الهدف منها وهو هداية الناس للدين القويم، فتأثرت الشعوب ودخلت في دين الله أفواجًا بظرف زمني قصير، وإن إبراز هذه العقيدة التي انتشر فيها الإسلام في الزمن الأول، وبيان منهج الصحابة رضوان الله عليهم الذي استقوه من الحبيب ﷺ أمر في غاية الأهمية في هذا العصر الذي شُوه فيه الإسلام ومُسخت صورته بسبب هجوم إعلام أعدائه وتصرفات رعناء من بعض من يُنسب إليه. ويُركز البحث على هدف الجهاد من خلال التطبيقات العملية للفاتحين، وسيتم عرض هذا بمشيئة الله وفق المنهج التاريخي العلمي المتعارف عليه، القائم على استقراء النصوص التاريخية وتحليلها ومقارنتها ونقدها، وصياغتها وتوظيفها وفق الأصول الأكاديمية.

Abstract

Military creed or the Soldier's Creed is a new term in the contemporary lexicon of modern armies, bearing several meanings. It is seen as a military strategy delineated by political leaders to demonstrate the official ethos of a state and to be adopted by its army. It may also be associated with the religious or intellectual ethos adopted by the ruling party or the political group in power. It may also be defined as the basic ideology of an army, or the guidelines that define the performance of troops in the battlefield. The NATO as well as other armies of the advanced Western countries created an amalgam of definitions for a soldier's creed. However, any definition of such a creed includes both values and tactics. This article is restricted to the study of values as a definition of the soldier's creed. This definition covers the precepts and higher values that guided the conquests run by the rightly guided caliphs. The value system in a military creed is the essence of all precepts that guide an army through any military conflict. Military creeds in world armies are known to emanate from the interests of nations premeditated by their intellectual; therefore, some of these creeds are right whereas others are wrong, and all are subject to change by time like legislations. Albeit, an Islamic military creed emanates from the Qur'an and the Sunna. An Islamic military creed is grounded in confidence and stability and it seeks after sublimity. The goal of jihad in Islam is well grasped by a little-ranked soldier, let alone a high-caliber general. The goal is to render high the Word of God; i.e., the spread of Islam as dictated in the Qur'an and traditions of Prophet Mohamed. In the era of the rightly guided caliphs, conquests had as its sublime goal the guiding of people to the right path of Islam. Atheist peoples got the message and swiftly converted to Islam by leaps and bounds in a short while. Adopting a similar creed as the one by early soldiers of Islam guided by the Sunna is an important procedure for modern Muslim armies at a time the image of Islam and jihad has been distorted either by hostile media or the irresponsible, ignorant behaviors of some Muslim jihadists. The article also highlights the goals of Jihad from the perspective of early Muslim conquerors dealt with according to a recognized historical approach grounded in text analysis, comparison and critique.

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعلنا من خير أمّةٍ أُخرجت للأنام، والصلاة والسلام على نبي الرَّحمة محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أولي النُّهى والأحلام.

لقد أُرهقت البشرية بالحروب منذ القِدَم، وكثيرًا ما توقّف الباحثون بجميع تخصصاتهم عند غايات الحروب في التاريخ، وأهدافها ومنطلقاتها ومآلاتها؛ وذلك لأغراض متعددة، منها الصالح ومنها الطالح، وهذا باب واسع يطول شرحه، ولكن يخصنا في هذا البحث الغايات والأهداف التي تنطلق منها الجيوش؛ لتحقيق مراد القائمين عليها، إذ من المسلَّم به أن كل قتال يقع إنما له هدف أو مجموعة أهداف، تسعى قيادة ما لتحقيق ما رسمته قبل وقوع الحرب، وأيًا كانت منطلقات هذه الأهداف، فإنه قد اصطلح على تسميتها في العصر الرَّاهن (العقيدة العسكرية)، وقد تتوسع معاني العقيدة عند البعض وتشمل جوانب متعددة لتحقيق الغاية، أو تضيق لتتحدد في الهدف ذاته فقط، كما سيأتي توضيحه.

ولئن كان مصطلح (العقيدة العسكرية) لم يكن معروفًا بهذه التسمية قبل العصر الحديث، إلا أن معناه كان مستخدمًا، فقد كانت الحروب تُشن بمسمى الأسباب، وقد ذكر ابن خلدون أربعة أنواع للحروب[(١)]، هي مجمل أسبابها من وجهة نظره، وحسب استقرائه لما يعلم من التاريخ حتى عصره، وفي الحقيقة هي جزء من تفسير (العقيدة العسكرية) المعاصر. ومن معانيها: الأهداف العليا للقيادة السياسية التي ترسمها لجيوشها وتُقاتل من أجلها، والذي يعنينا في هذا البحث هو استقراء منطلقات الجهاد في عصر الخلفاء الراشدين من خلال الوقائع التاريخية، وقد خاض فيها كثيرون، إما مُغرض أو مُدافع، وجُلّ من كتب إنما سلك طريقة التنظير، مع الاستشهاد ببعض النصوص من الوحيين، أما في هذا البحث فتم توظيف الأخبار التاريخية؛ للخروج بتصور دقيق عن أهداف الدَّولة العليا من الجهاد في عصر الراشدين، دون الدُّخول في تفاصيل أقسام الجهاد وأنواعه وأسبابه التي كُتب فيها الكثير منذ القرن الثاني وإلى يومنا الحاضر.

ونحن بحاجة ماسة لبيان هذه العقيدة في هذا الزَّمن الذي تكالبت فيه الفتن من كل حدب

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق: عبدالسلام الشدادي، الدار البيضاء، بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص٥٥.

وصوب، وجعلت الحليم حيرانًا؛ لهول ما يرى ويسمع، من حروب وتناحرات وتراشقات وتنابزات، لم يعد الظاهر فيها يخبر عن الباطن، فكم من حروب شُنَّت بشعارات برّاقة، ثم لما توقفت تجلت عن حقائق مرّة، وتمخضت عن كوارث هائلة، وما أحداث أفغانستان والبلقان والعراق وسوريا إلا نماذج قريبة، أُزهقت فيها أرواح نخبة من شباب الأمة الإسلامية، وأُنفقت أموال ضخمة، وبُذلت جهود جبارة؛ ليأكل الثمرة العدو الأصلي، ثم لتبدأ طاحونة أخرى بين الجماعات التي اجتمعت على قتال العدو الصائل لتتقاتل فيما بينها، وكلهم يصرخون في وجوه بعضهم البعض وهم يتقاتلون: الله أكبر!!.

وتهتم الدُّول المعاصرة ببناء عقيدة عسكرية واضحة تُربي جنودها على أساسها، وترسم خطتها الإستراتيجية بناءً عليها، على تفاوت بين تلك الدُّول في مفهومها للعقيدة العسكرية - كما سيأتي معنا -؛ وأمَّا العقيدة العسكرية الإسلامية فهي مبنية على أُسس ثابتة لا تتغير؛ لأنها مأخوذة من نصوص الكتاب العزيز والسُّنة المطهرة، ولكن كثيرًا ما اختلفت العقول في نظرها وتفسيرها وفهمها لتلك النُّصوص، فتبقى التطبيقات التاريخية التي حدثت في عصر السِّيرة وعصر الراشدين خير معين على فهم هذه العقيدة واستيعابها، وفي هذه القصة ما يُعزز هذا الرَّأي، قال عبد الله بن الزبير: "لقيني ناس ممّن كان يطعن على عثمان، ممّن يرى رأي الخوارج، فراجعوني في رأيهم، وحاجوني بالقرآن، فوالله ما قمتُ معهم ولا قعدت! فرجعتُ إلى الزُّبير منكسراً، فذكرتُ ذلك له، فقال: إنَّ القرآن قد تأوَّله كل قوم على رأيهم، وحملوه عليه، ولعمر الله إن القرآن لمعتدل مستقيم، وما التَّقصير إلا من قِبلهم، ومن طعنوا عليه من الناس فإنهم لا يطعنون في أبي بكر وعمر، فخذهم بسنتهما وسيرتهما، قال عبد الله: فكأنما أيقظني بذلك، فلقيتهم، فحاججتهم بسنن أبي بكر، فلما أخذتهم بذلك، قهرتهم، وضعف قولهم، حتى كأنهم صبيان يمغثون سُخُبَهُم[1]"[2]، وهذا النَّهج يصلح كذلك مع أُغيلمة العصر الذين وجّهوا سلاحهم للمسلمين وسَلِمَ منهم الأعداء الأصليين، بُحجج شيطانية غلَّفوها باسم الدِّين، نتيجة فهمهم السَّقيم لنصوص التنزيل العزيز، كما أخبر المصطفى الحبيب ﷺ حينما قال: "يَقْرَءُونَ

(١) السُّخُب: قلائد الخَرَز، ويمغثون، وفي رواية يَمْرُثون: يمصون ويعضون، أي أنهم بُهِتُوا وعَجَزوا عن الجواب (ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه، ٢/ ١٩٠ "مرث").

(٢) الزبيري، مصعب بن عبدالله، نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص١٠٣، وابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو العمروي، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ (١٩٩٨م)، ٣٩/ ٤٩٧، ونحوه عند البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦م)، ٥/ ٤٩٢- ٤٩٣.

الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ"[(١)]، وما تعج به بلاد المسلمين من ادعاء جماعات رفع راية الجهاد في سبيل الله، وفي كثير من تصرفاتهم لا يمتون لحقيقية الجهاد بشيء، لدرجة أنَّه أصبح مفهوم الجهاد يرتبط في أذهان غير المسلمين، بل في أذهان كثير من المسلمين، بالعنف والشِّدة والقسوة والبطش والتناحر والاحتراب، حتى بين الجماعات التي تتبنى النَّهج نفسه، وقد يكون بعضهم صادقًا في نيته ولكنه لم يُصب الحق، أو عنده نوع من الهوى الخفي، كما قال ابن تيمية: "إنَّ الرَّجل العظيم في العلم والدِّين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أهل البيت وغيرهم، قد يحصل منه نوعٌ من الاجتهاد مقرُونًا بالظَّن، ونوعٌ من الهوى الخَفيِّ، فيحصلُ بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين"[(٢)]، ولا يستبين ضلال منهج هؤلاء جميعًا إلا بذكر تطبيقات الراشدين؛ فهم أعرف النَّاس بمراد الله تعالى ورسوله ﷺ، وإن إبراز الأهداف العُليا التي انطلقت منها عمليات الفتح في عصر الراشدين، والتي تستشهد بها كل جماعة هو الفيصل والحكم بين الجميع، وليس ما تلبَّست به عقول بعض البشر، والتي داخلتها نوازع شتى، فجعلت الجهاد عامل تنفير وتفريق بدلاً من أن يكون سببًا لهداية البشرية وإخراجها من ظلمات الاستبداد والفساد والظلال.

هذا وإن إظهار عظمة العقيدة العسكرية الإسلامية من الناحية التطبيقية في مقابل العقائد العسكرية البشرية الأخرى، القديمة منها والحديثة، أمرٌ تُحتمه ضرورات معاصرة كثيرة، فالعقيدة العسكرية الإسلامية تتسم بالثبات والمسالمة والرَّحمة، وإقرار الحق والعدل ونصرة المظلوم، وتنضبط بالقيم الأخلاقية السَّامية، بينما العقائد العسكرية الأخرى متغيرة، وتنزع إلى العدوانية والعنف وتحقيق المصالح الشخصية أو الفئوية أو القومية على حساب الآخرين، ودون نظر لأي آداب وأخلاق محمودة، فهي لا تُقيم حقًا ولا تردع باطلاً، بل تزيد البشرية بؤسًا وشقاءً وشقاقًا واقتتالا.

كما أنّ دارسة العقيدة العسكرية في عصر الراشدين يُجلّي للبشرية جمعاء أنّ النظرية التي جاء بها الإسلام بهذا الخصوص ليست مثالية ولا عسيرة التطبيق مهما اختلفت الظروف، وأنّ بوسع البشر في أي زمان ومكان تكرارها إذا صدقت نياتهم وصَحَّت أهدافهم، فبعد عصر النُّبوة المؤيد بالوحي

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ٤/ ١٣٧ (ح ٣٣٤٤).

(٢) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني، منهاج السُّنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م)، ٤/ ٥٤٣.

كان الخلفاء في غاية الحرص على اتباع خُطى الرسول ﷺ في أدقّ التفاصيل؛ مما يعني أن التجربة الأولى غير مستحيلة ولا عسيرة؛ لأن أحوال البشر متشابهة ونوازعهم متجانسة.

وإنَّ في بيان العقيدة العسكرية في عصر الراشدين من خلال التطبيقات التاريخية، التي تظهر فيها بعض التجارب الجديدة والنَّوازل الحادثة خيرُ مُعين للدَّارسين لظروف العصر؛ لتحقيق المناط فيما تحتاج إليه الأمَّة الإسلامية من حلول معاصرة لكثير من قضاياها.

هذا بالإضافة إلى تقديم تصوّر مهم للدول أو الجماعات التي تُصارع قوى الشَّر، وخصوصًا في فلسطين الجريحة، والتي تُريد أن ترسم عقيدتها العسكرية بناءً على أُسس من الشَّرع الصحيح وفق فهم الصحابة الأخيار.

وفي مثل هذا البحث إبراز للصورة الوضَّاءة التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم، من سمو الأهداف، ونُبل الأخلاق، وعظمة الرِّسالة التي حملوها للعالم، وإدراك لمدى تقديمهم مصلحة الأمَّة على أية مصلحة شخصية، مع إيثارهم وتضحيتهم، ومعرفة حقهم الواجب على الأمة نحوهم.

ولا يخلو هذا البحث من دحض بعض شبهات المستشرقين والمستغربين لجوانب من الجهاد في الإسلام، الذين لا يفتؤون يلمزون الإسلام والمسلمين بناءً على بعض التصرفات المعاصرة الطائشة، فيُحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويُقدِّمون فهمًا سقيمًا للنُّصوص، من مثل تفسيرهم لحركة الفتح تفسيرات سلبية، وفي هذا البحث ردٌّ علميٌّ وعملي على كثير من إسقاطاتهم المغلوطة.

وأخيرًا فإن عرض تاريخ الجيل الأول من أُمَّة الإسلام بصورة تتسق مع مفاهيم العصر ومصطلحاته، وفق احتياجاته، أمرٌ لا تخفى ضروراته وفوائده، مع مراعاة الضوابط الشرعية والعلمية في هذا الباب.

ومن منهجي في هذا البحث، أني ركزتُ على هدف البحث التاريخي، ولا أستطرد بذكر النُّصوص الشرعية وأقوال العلماء فيما يتعلق بالجهاد وأحكامه وقواعده وضوابطه، وإن ذكرتُ شيئًا فلحاجة ماسة؛ فهدف البحث ذكر التطبيقات التاريخية، وهذا ما ينقص الساحة العلمية، أما الأحكام وما يجري في مجراها فمحلّها بحوثها المتخصصة، وقد أُشبعت كتابة وتحليلاً وتفريعًا.

كما لم أتوسع في المقدمات التي تَعَوَّد البعض على البداءة بها، من مثل تعريف الجهاد، والقتال، والحرب، ومذاهب الدِّيانات القديمة حول هذه المصطلحات، والنَّظرة المعاصرة لها، وواقع الدول الحديثة عند المشاركة فيها، ونحو ذلك، مما أرى أن الكتابة فيه هو اجترار لجهود الآخرين، ولا جديد فيه، ولو اضطررتُ إلى شيء من ذلك فأختصر القول فيه، وأُركِّز على ما يخدم موضوع البحث فقط.

وسببُ نهجي هذا أني رأيتُ الكثيرين غلبت على بحوثهم التاريخية الجوانب النَّظرية، فخرجتْ عن أصلها، لدرجة أن أحدهم لم تتجاوز النُّصوص

التاريخية التي ذكرها في صُلب بحثه عشرة نصوص، وقد تجاوز ثمانين صفحة!.

وفي الإحالة على المصادر سلكت المنهج المتبع في البحوث التاريخية في تقديم الأقدم، ولكني قد أُقَدِّمُ المتأخر؛ لأن النَّص أو معناه قد أخذتُهُ منه؛ لأسباب تتعلق بخدمة الفكرة التي يتم الحديث عنها.

صحيح أن تفاصيل الوقائع التاريخية تحتاج إلى إعمال النَّقد، ولكن في هذا البحث كان الهدف هو إبراز المعاني، وليس تثبيت الوقائع والأحداث، ولأن المعنى يكون شبه متواتر؛ فلا حاجة إلى الوقوف مع تفاصيل الأخبار، فعرض المسلمين على من يقاومهم الخيارات الثلاثة المشهورة (الإسلام، أو الجزية، أو القتال) هو أمر مستفيض متواتر، وقد يكون في بعض تفاصيل ما جرى بين المسلمين وبين أعدائهم ما يحتاج إلى نقد وتحرٍّ، ولكن ليس هذا مجال الوقوف مع تلك التفاصايل، وإنما ذِكْر المعنى العام، وكذا الأمر بالنسبة للمراسلات، والحوارات، والقصص، فذكرها لا يعني التسليم بتفاصيلها كلها، وإنما هو تعضيد للفكرة الأم التي لا خلاف عليها.

لقد رأيتُ أن موضوع البحث يحتاج إلى معالجة مسائل ثمان، مرتبطة ببعضها البعض ولا تنفصل، وكل مسألة تخدم الفكرة الأصلية، ولا تتجلّى إلا بها، ولكن لضرورات البحث؛ جعلتها في عناوين مستقلة، فالمبحث الأول: مدخل لتعريف العقيدة العسكرية، والثاني: تكلمت فيه عن هدف العقيدة العسكرية في عصر الراشدين بالإجمال، أما الثالث: فخصّصته لتوجيهات القيادة ــ وهي الخلافة ــ، والقادة ــ وهم القادة الميدانيون ــ، وتطبيقاتهم لتحقيق هدف الجهاد، والمبحث الرابع: بيَّنت فيه حرص الدَّولة على تغليب السِّلم والأمان على القتال، والخامس: ذكرت بعض الأخبار التي تُثبت أنّ الأهداف العليا للقيادة فوق جميع الاعتبارات الشخصية، والسادس: عن الدّعوة للسّلام قبل القتال، والسابع: النزاهة والبُعد عن المطامع الدنيوية، والثامن: شهادة الأعداء على صدق هدف الفاتحين.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول
تعريف العقيدة العسكرية(١)

مصطلح (العقيدة العسكرية) من المصطلحات الجديدة المستخدمة في الجيوش المعاصرة، ومصدر المصطلح مأخوذ من الكلمة الإنجليزية (Military Doctrine)، ويرى أحد الباحثين أنّه يمكن أن يُترجم كذلك إلى معانٍ أخرى، مثل: (المذهب العسكري)،

(١) لم أتطرق للمعنى اللغوي ل-(العقيدة)؛ لأن اشتقاق المصطلح لم يؤخذ من اللغة العربية، وإنما هو مصطلح يحمل معاني متعددة، ويخضع لتفسيرات كل جيش، بينما المعنى اللغوي للعقيدة له دلالة محددة، وتم استخدام المصطلح في هذا البحث في جزء من تفسيراته المعاصرة، فمحاولة ربطه بالأصول اللغوية العربية فيه شيء من التمحل والتضييق له، شأن كثير من المصطلحات المترجمة.

أو (التعليمات العسكرية)، أو (المبادئ والقواعد العسكرية)، وأيًّا كانت الترجمات، فإنّ مصطلح (العقيدة العسكرية) هو السائد في الجيوش المعاصرة[١]، ولم تجتمع التعريفات على معنًى واحد للمصطلح، فبينها اختلاف وتنوّع[٢].

وقد وصفه أحد الباحثين بأنه مصطلح مألوف "لكنه في الوقت نفسه مُعَقَّدٌ في إطاره ومحيطه وتركيبه، ورغم أننا نمارس مضامين العقيدة العسكرية في حياتنا اليومية بشكل أو بآخر، إلا أننا نفتقر إلى المعرفة العميقة لهذا المصطلح المهم"[٣]، وقد نتج عن اختلاف المفاهيم الفكرية والعسكرية والسياسية في تحديد التعريف الدَّقيق للعقيدة العسكرية للدولة ومكانتها وعلاقتها بالغايات والأهداف والسياسات القومية والتخصصية؛ عدم وجود نمط واحد يمكن الأخذ به، وعَدّه نمطًا ثابتًا لعقيدة عسكرية صحيحة[٤]، خاصة أن جُلَّ

(١) مشتهى، أسعد ماجد، العقيدة القتالية عند اليهود وموقف الإسلام منها، أطروحة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة لم تُنشر، غزة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م)، ص٨، نقلاً عن أبو البشير، محمود، العقيدة العسكرية دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، مصر، ص٥- ١٢.

(٢) ينظر مثلاً ما جاء عند: محفوظ، محمد جمال الدين علي، النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨١م، ص١٣، والجانب العسكري من حياة الرسول ﷺ، بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، الدوحة، محرم ١٤٠٠هـ، عُني بطبعه ومراجعته عبدالله الأنصاري، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ (١٩٨١م) ج٤، ص٥١٦-٥١٧، وسويد، ياسين، الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، ص٣٥٧، والخلفات، جمال يوسف، وأسعد، بهاء الدين محمد، العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، الزرقاء، مكتبة المنار، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)، ص٨٦ وما بعدها، وأوهانلون، مايكل، الجديد في

==

==

العقيدة العسكرية الأمريكية، مجلة آفاق المستقبل، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، سبتمبر/ أكتوبر، السنة الثانية، ٢٠١٠م، العدد: ٧، ص١٠٥، والحيالي، نزار إسماعيل، وياسين، عمار حميد، قراءة في المذهب العسكري الروسي بين الماضي والحاضر، مجلة الدراسات الدولية، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، السنة: ٢٠١٣م، المجلد: لا يوجد، العدد: ٥٦، ص٦، وحسين، أحمد حسن، العقيدة العسكرية الإسلامية دراسة ومنهج ومقارنة، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ (١٩٩٨م)، ص١٦٩ وما بعدها، والعمار، منعم صاحي، العقيدة العسكرية العراقية الجديدة، مجلة قضايا سياسية، جامعة النهرين، السنة: ٢٠١١م، المجلد: ٢٣-٢٤، الإصدار: ٢٣-٢٤، ص٤.

(٣) الحيالي، قراءة في المذهب العسكري الروسي، ص٤.

(٤) حسين، العقيدة العسكرية الإسلامية، ص١٦٩.

من كتب فيها يتفقون على أنّ العقيدة العسكرية في الدُّول المعاصرة غير ثابتة، وهي تختلف كذلك من دولة لأخرى؛ بناءً على اعتبارات كثيرة؛ لذا فإن أحد الباحثين يرى أنّ الصَّواب هو إبدال كلمة المعتقد بالمذهب؛ لأنّ العقيدة لا تتغيّر ولا تتبدّل[١]، أما العقيدة العسكرية الإسلامية فيصح تسميتها بذلك؛ لأنها ثابتة، وهذا رأي له وجاهته.

ولسنا هنا في معرض تحرير هذا المصطلح وضبطه ووضع إطار محدد له؛ نظرًا لتنوع التعريفات التي يُطْنِب فيها بعضهم، فيُدخل فيها مجموع القضايا العسكرية المتنوّعة، ويُعدِّد المضامين التي تحقّق الإستراتيجية العسكرية للدولة، والتي تمتدّ من القيادة السياسية إلى أصغر جندي، وقريب من هذا من يرى أنّ العقيدة العسكرية هي: مجموعة من القيم والمبادئ الفكرية التي تهدف إلى إرساء نظريات العلم العسكري وعلوم فن الحرب؛ لتحدد بناء القوات المسلحة واستخداماتها في زمن السلم والحرب بما يُحقّق الأهداف والمصالح الوطنية، بينما عرّفها آخرون: بالسياسة العسكرية المرسومة التي تعبّر عن وجهات النظر الرَّسمية للدولة فيما يتصل بقواعد الصِّراع المسلّح من طبيعته وغاياته وطرق إدارته، ومنهم من يربطها بمنطلقات الدَّولة الدِّينية أو الفكرية التي يتبناها الحزب أو الجماعة السياسية الحاكمة والتي تسعى لتحقيقها، وقد يقترب من هذا المفهوم من يرى أنّها: مجموعة من الآراء والتعاليم الفلسفية والعلمية والنظرية والتي تتعلق بفلسفة الحرب، وبعضهم يعطيها وصفًا مجملاً بأنّها: الفكرة الأساسية للجيش، ومنهم من يرى أنها: الخطوط العريضة العامة التي تُحدّد أداء القوات خلال عمليات المعارك دون وضع قوانين ونظريات جامدة، في حين أنّ حلف النَّاتو وبعض الدُّول المتقدمة مزجت جميع هذه المفاهيم مع بعضها البعض في تعريفها للعقيدة العسكرية[٢].

وبما أنّ هذا المصطلح ليس له تعريف واحد متفق عليه؛ يمكن أن نستظهر بعد تأمّل جُلّ التعريفات أنّه ينقسم على قسمين، هما: (المبادئ، والأساليب)؛ لذا يمكن أن نقتصر منه على الجزء الأول، وهو مراد هذا البحث، والمتعلّق بالمبادئ أو الأهداف العُليا التي انطلقت منها عمليات الفتح في عصر الراشدين؛ وهذا هو الأساس الذي تتفرّع منه جميع المفاهيم والقيم والمنطلقات الأخرى، وإن رأى بعضهم أنّ مجموع التوجيهات العسكرية التي تحث الجندي المسلم على القتال والثبات هي التي تُشكِّل العقيدة العسكرية[٣]، ولكننا سنقتصر على جزئية

(١) المرجع السابق، ص١٨٨.

(٢) ينظر في هذه التعريفات، المراجع السابقة، وموسوعة الويكيبيديا على النت https://goo.gl/4E35a5.

(٣) ينظر فصل العقيدة العسكرية عند خطاب، محمود شيت، العسكرية العربية الإسلامية عقيدة وتاريخًا وقادة وتراثًا ولغة وسلاحًا، كتاب الأمة، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٣هـ، ص٥١ وما بعدها، وبالأخص ص٥٨-٥٩.

واحدة في هذا البحث وهي الدَّافع لعمليات الفتح فقط، خاصة وأن بعض العسكريين المسلمين يرون أنّ العقيدة العسكرية الإسلامية توازي (عقيدة الجهاد) أو (هدف الجهاد) في الإسلام[١].

وقد يرى بعض الباحثين استخدام مصطلح (العقيدة القتالية) تعبيرًا عن الدوافع للعمل الحربي بدلًا من (العقيدة العسكرية)، ولكن بعد التَّمعّن في التعريفات الكثيرة التي ساقها المتخصصون أو سُجِّلت في دساتير بعض الجيوش الأجنبية والعربية، يتبيّن وجود فارق دقيق بين المصطلحين فيما اختاره هذا البحث من مصطلح (العقيدة العسكرية) وهو (المبادئ)، فهذا يمثل السياسة العليا للدولة، وهو ما قصده هذا البحث، في حين أن مصطلح (العقيدة القتالية) هو جزء من العقيدة العسكرية، ويتركز في الدافع الداخلي للجندي على لقتال، وإن كانت السياسة العليا هي التي ترسمه، ولكنه أكثر خصوصية، والجنود قد يختلفون حقيقة في دوافعهم، كما أنّ هذا المصطلح من وجهة نظري هو أضعف في دلالته على المعنى الذي نريد إيصاله من مصطلح (العقيدة العسكرية)، فهذا الأخير أشمل وأعمق، ويأخذ سمة الثبات أحيانًا، خاصة إذا كان مستمدًا من أصول دينية، أما (العقيدة القتالية) فهي خاضعة لمؤثرات كثيرة.

ونحن ندرك أن العقائد العسكرية في دول العالم تنبثق من المصالح التي تصوغها عقول البشر؛ لذا فهي تنطوي على الصَّواب والخطأ، ويختلط فيها الحق مع الباطل، وهي عُرْضَةٌ للتغيير المستمر، شأنها شأن القوانين الوضعية، أما العقيدة العسكرية الإسلامية فإنّها تنبثق من القرآن والسنة، فمع الثِّقة في سُمو أهدافها فإنّها كذلك تتصف بالثَّبات والاستقرار[٢]، فالميزان الذي يمكن التحاكم إليه واضح لا لبس فيه ولا غموض، ولا يمكن أن يختلف الدَّارسون والمحللون في تفسيره، وعلى هذا يجري النظر في القيم الحربية كلّها، ومنها على وجه الخصوص العقيدة العسكرية والتي هي أساس القيم الأخرى.

المبحث الثاني
هدف العقيدة العسكرية في عصر الراشدين

هو نفسه هدف الجهاد في الإسلام، والذي يفهمه الجندي الصغير قبل القائد الكبير، ويتلخّص في إعلاء كلمة الله ﷻ، كما نصَّت على ذلك آيات الذِّكر الحكيم وأحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم[٣]، قال ابن تيمية: "المقصود

(١) محفوظ، الجانب العسكري من حياة الرسول ﷺ، بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، ج٤، ص٥١٧-٥١٨.

(٢) محفوظ، النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، ص٢٥.

(٣) من ذلك: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا

==

بالقتال: أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كلّه لله، وأن لا تكون فتنة، أي: لا يكون أحد يَفْتِنُ أحدًا عن دين الله"[١]، ولا يكون القتال إلا لمن يُقاتل المسلمين إذا أرادوا إظهار دين الله، فمن لم يمنعهم من إقامة دين الله فلا يُقاتل؛ لأن مضرة كفره تكون على نفسه فقط[٢] كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[٣]؛ ولذا اتبع الخلفاء الراشدون سنة نبيهم ﷺ، وقد "كانوا أتبع النَّاس له، وأطوَعَهُم لأمره، وأحْفَظَهُم لعهده، وقد غزوا الرُّوم، كما غزوا فارس، وقاتلوا أهل الكتاب، كما قاتلوا المجوس، فقاتلوا من قاتلهم"[٤]، ونؤكد على أن مقصد هذا البحث هو استظهار الأهداف العليا من خلال أخبار الفتوح، دون الكلام عن أنواع الجهاد وأقسامه.

وإعلاء كلمة الله هدفٌ "يسع كل القيم الإنسانية السَّامية، كالدِّفاع عن الوطن، وعن العِرْض، والكرامة، والحق، والعدل، والسلام ... أما العدوان والاغتصاب فليست من أهداف الجهاد الإسلامي"[٥]، ويتلخّص هذا الهدف في الواقع بكلمتين (تصحيح الاعتقاد، ورفع الفساد)، وكل ما يُذْكر من أهداف الجهاد داخل تحت هذين المعنيين، وعَدُّه يطول، وفي ذلك الزمن لم يكن تحقيق مثل هذا الهدف إلا بتسيير الجيوش، خاصّة أنّ القوى الحاكمة كانت ترفض الاستجابة للدَّعوة، وتمنع الناس من الانقياد لغير ما يشتهون، ويضطهدون أتباع الدَّيانات الأخرى، بل وحتى الذين على دينهم إذا لم يكونوا على المذهب نفسه، كما يفعل الرُّوم مع النَّصارى الذين على يُخالفونهم في المذهب، كما هو معلوم، فضلاً عن قبول مبادئ الحق والعدل الأخرى، ومن الأدلة على ذلك -

==

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وعن أبي موسى قال جاء رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ قال: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله" (البخاري، الصحيح، ٩/ ١٣٦ (ح ٧٤٥٨).

(١) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد الحلواني ومحمد كبير شودري، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ٢/ ٢١٤-٢١٥.

(٢) ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني، مجموع الفتاوى، جمع: عبدالرحمن القاسم، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م)، ٢٨/ ٣٥٤، والصارم المسلول، ٢/ ٢١٥.

(٣) سورة البقرة.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/ ٢٠٥.

(٥) محفوظ، الجانب العسكري من حياة الرسول ﷺ، بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، ج٤، ص٥١٨.

وهي كثيرة - أنّ ملك الرُّوم هِرَقْل لما بعث إليه أبو بكر بعض الصحابة يدعونه إلى الإسلام، استبان له الحق، في قصة له معهم طويلة، ولكنه آثر الملك والدُّنيا على الآخرة، وقال: "أَمَا والله لَوَدِدْتُ أَنَّ نَفْسِي طَابَتْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مُلْكِي وَأَنِّي كُنْتُ عَبْدًا لَشَرِّكُمْ مَلَكَةً حَتَّى أَمُوتَ"[(١)]، وفي بعض الروايات قال: "والله لقد وَدِدْتُ أَنَّ نَفْسِي تَطِيبُ بِتَرْكِ هذا الملك حتى أخرج معكم وأكون عبدًا لأميركم إذ كنتم رأيتم هذا النبي وشاهدتموه، ولكن نفسي لا تطيب بترك ما أنا فيه من هذا الملك"[(٢)]؛ ولذلك لما أخبر الوفد أبا بكر بِرَدِ هِرَقْل، بكى وقال: "مسكينٌ لو أراد الله به خيرًا لَفَعَل، ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّهم واليهود يجدون بَعْثَ محمد ﷺ، فقال الله عز وجل: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[(٣)]"[(٤)].

وردَّ قائد الرُّوم في اليرموك على خالد بن الوليد لما عرض عليه الإسلام أو الجزية، قال: "يا خالد أمَّا

(١) المعافى بن زكريا، أبو الفرج النهرواني الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق: محمد الخولي وإحسان عباس، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م)، ٣/ ٣٨٩، وأبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق: محمد رواس قلعه جي وعبدالبر عباس، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦م)، ١/ ٥٠ (ح١٣)، وقوَّام السُّنة، إسماعيل بن محمد الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق: محمد الحداد، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١/ ٩٤ (ح ٨٧)، والبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١/ ٩٣، وابن عساكر، تاريخ دمشق ٧٤/ ١٧، قال ابن كثير عن إسناد القصة: لا بأس به (ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، الرياض، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، ٣/ ٤٨٦)، وقال الذهبي: روى القصة أبو عبدالله بن منده، والحاكم، وهذا سند غريب، ورواها الزبير بن بكار، وعلي بن حرب الطائي (الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)، ١/ ٨٠٠- ٨٠١، وسير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دمشق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٢/ ٤٤٣-٤٤٤)، وذكر ابن حجر إسناد المعافى بن زكريا، وقال: ضعيف (ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ٤/ ٣٩٥) وإنما أطلت قليلاً في تخريج هذا الخبر؛ لما في تفاصيل القصة من غرابة.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٣١.

(٣) سورة الأعراف.

(٤) المصادر السابقة نفسها.

ما ذكرتَ أنَّا ندخل في دينكم فهذا ما لا يكون أبدًا، فلا تُطمع نفسك في ذلك، فما أبعدكم أن تروا ولد الأصفر وقد تركوا دينهم ودين آبائهم ودخلوا في غيره، وأمَّا ما ذكرتَ أنَّا نؤدي الجزية فإنَّه سيموت من تَرى من هذا الخَلق قبل أن يؤدوا الجزية، وكيف يؤدونها وهم يأخذونها من النَّاس على الصِّغَرِ والقَمَأة"[١].

ومن قادة الرُّوم في اليرموك رجلٌ يُقال له الدرنجار، كان من نُسَّاكهم، وكان كارهًا لقتال المسلمين؛ لما يجد من نعتهم وصفتهم في الكتب، ولكنه خرج للقتال ومات على الكفر[٢].

وبعد معركة نهاوند غنم الفاتحون سبايا من اليهود، فطلب زعيمهم من عبدالله بن سلام أن يعينه ليُفادي ذلك السَّبي، ففعل ابن سلام رجاء أن يُسْلِم، وبقي معه ثلاثة أيام يقرأ عليه التَّوراة وهو يبكي، فأقرَّ اليهودي، ولكنه لم يُسْلم وقال: كيف أصنع باليهود؟ فقال ابن سلام: إنَّ اليهود لن يُغنوا عنك من الله شيئًا، فغلب عليه الشَّقاء وأبى أن يُسلم[٣].

ولما تواجه جيش المسلمين مع جيش مصر عند بابليون، تكلم عمرو بن العاص مع راهبي البلدة، فأقنعهما بالإسلام وسلامة قصد الفاتحين، فرجعا ليعرضا الأمر على قومهما، وطلبا مهلة خمسة أيام زيادة على الأيام الثلاثة المعتادة، فزادهم كما أرادوا، وهَمّ المقوقس ملك مصر بالإجابة، ولكن القائد العسكري رفض، وأمر بمهاجمة المسلمين قبل انقضاء الأجل[٤]، ومن العجب أنّ الفاتحين أخذوا سبيًا لما هاجمهم جيش مصر، فطالب الرَّاهبان عمرو بن العاص بردهم؛ بحجة أنهم أُخذوا قبل انقضاء مهلة خمسة أيام التي أعطاهم، فرفض عمرو ذلك؛ لأن جيشهم نقض الأجل وهاجم المسلمين على حين غِرة، فلما وصل الخبر إلى الفاروق أمر برد السَّبي الذي أُصيب قبل انقضاء خمسة أيام ممن لم يُقاتل المسلمين، أما من قاتل فلا يُرد[٥]، فلكل العالم نقول: هاتوا لنا من يفعل مثل هذا!!.

وفي خبر آخر أنَّ وفد المسلمين قابل المقوقس، فعرف أن لا طاقة لهم بالفاتحين، وعرض على من حوله قبول الجزية، وقال: "أما دخولكم في غير

(١) ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي، الفتوح، حيدر آباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١/ ٢٤٦، والأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبدالله البصري، فتوح الشام، تحقيق: وليم ناسوليس الإيرلاندي، كلكتا، مطبعة بيتست مشن، ١٨٥٤م، ص١٨٤ نحوه.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص٢٠٧.

(٣) ابن ابي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٨/ ٢٨٦-٢٨٧ (ح ٣٤٤٨٤).

(٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، الطبعة من الثانية إلى الرابعة، ٤/ ١٠٧.

(٥) المصدر السابق، ٤/ ١٠٨-١٠٩.

دينكم فلا آمركم به"، ولكن السَّادة والكُبراء ردوا عليه رأيه وتكبروا[١].

ولما كتب عبدالله بن سعد بن أبي السَّرح في عهد عثمان بن عفان إلى ملك إفريقية يدعوه إلى الإسلام، غضب وقال: "لا دخلتُ في دينكم أبدًا"، ولما عرض عليه الجزية قال: "لو طلبتم منّي درهمًا واحدًا ما أعطيتكم، ولا تتحدث الملوك عنّي بذلك أبدًا"[٢]، وفي رواية أنه استطال وتجبَّر، وقد بقي المسلمون أيامًا يدعونه إلى الإسلام، وهو يقول: لا أقبل هذا أبدًا!"[٣].

ولما غزا المسلمون صقلية في عهد عثمان بعثوا إلى الملك من يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فتغطرس وقال: "أمَّا ما عرضتموه علينا من اتباع دينكم فهذا ما لا يكون، ولستُ أُفارق ديني أبدًا، وأما ما سألتموه من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا منّي بالمساكنة والمسالمة وأن لا أغزوكم في بلادكم"[٤].

ولا بد أن ندرك جيدًا أننا يجب أن ننظر إلى ظروف تلك الأزمان كما هي في سياقها التاريخي؛ لنعرف أسباب استخدام تلك الوسائل، فلا يأخذنا الحماس فنطبق عليها أحوال عصرنا دون وعي بالمقاصد والمآلات، كما تنادي به وتفعله بعض الطوائف والجماعات، فإذا كنَّا حاليًا نستطيع أن نصل إلى العالم عبر وسائل سلمية كثيرة لإبلاغ الدِّين، ومنها الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة، وبالإمكان التأثير على الشعوب الأخرى كما يفعلون هم بشعوبنا، فلا مجال للمقارنة بذلك الوقت[٥]؛ لذا فإنّ البحث في أهداف الجهاد ومحاولات التبرير الطويلة له تنتهي عند استيعاب هذه الحقيقة، خاصة إذا أدركنا أنّ هدف الجهاد مضبوط بقواعد وشروط وقيود، ولا يعني سمو الهدف ارتكاب المحظور، وقد كتب كثيرون بالتفصيل في أهداف الجهاد في الإسلام وغاياته وضوابطه وقواعده بما لا مزيد عليه، ولا ينفع معه التكرار، وإنما مرادنا هنا إبراز الجانب العملي لتلك العقيدة في عصر الراشدين، ولأنّ الهدف الأعلى واضح؛ فإنّ التفريع لأهداف

(١) ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالله، فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، وهي مصورة عن طبعة المستشرق توري، ليدن، ١٩٢٠م، ص٦٩، ويقارن بما عند البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله وعمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧م)، ص٣١٠.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١٣٥-١٣٦.

(٣) النويري، أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م)، ٢٤/ ١٢.

(٤) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ٤٢.

(٥) وقد تكلم العلماء كثيرًا في مسألة علاقة الدولة المسلمة مع غير المسلمين، وعن أسباب الجهاد وأحواله، ولهم تفصيل طويل ونقاش لم يُحسم بعد، ولن يُحسم؛ لأن كل طائفة لها حججها القوية، ولكن كلامنا هنا بالنظر إلى المقاصد والمآلات، وحالة العصر التي نعيشها، وظروف المسلمين الآنية.

أخرى ليس من مقاصد هذا البحث، وهو من قبيل الإطناب، وكلّ من حاول إبراز بعض الأهداف العليا للجهاد تبقى الملاحظة عليه بإهماله أهدافًا أخرى لا تقل أهمية عمّا ذَكَر، وللخروج من هذه الإشكالية يكفي التركيز على الأصل في تحقيق المقصد، مع ضرب نماذج من الأهداف المتفرّعة الأخرى.

وممّا يدل على صدق نية أولئك الفاتحين، أنّ النَّصر كان في الأغلب حليفهم، وحاربتهم جيوش جرَّارة من قوى مختلفة ومتنوّعة، ومع ذلك لم يقف في وجههم شيء، بل وتأثرت تلك الجيوش والشعوب بأخلاق الفاتحين، ولا يزال الإسلام في جُلّ البلاد التي فتحوها راسخًا على الرَّغم من الهجمات الشَّرسة والمتكرّرة على كثير من سكان تلك البلاد، وخير دليل على هذا المعنى قول عبدالرحمن بن ربيعة حينما أمره عمر بغزو التُّرك، فخرج بالجيش حتى قطع الباب[١]، فقال له ملك الباب (شهربراز): "ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد بلَنْجر[٢]. قال: إنَّا لنرضى منهم أن يَدَعُونا من دون الباب[٣]. قال: لكنَّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيَهُم في ديارهم، وتالله إنّ معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الرَّدْم[٤]. قال: وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنيّة، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم، ولا يزال النَّصرُ معهم يُغيّرهم من يغلبهم، وحتى يُلْفَتُوا عن حالهم بمن غيّرهم"[٥].

ولما نزل خالد بن الوليد على تَدْمُر بالشام، تحصّن أهلها فلم يقدر عليهم، فناداهم وقال: "والله لو كنتم في السَّحاب لاستنزلناكم ولظهرنا عليكم، وما جئناكم إلّا ونحن نعلم أنَّكم ستفتحونها علينا"، فاجتمع عظماؤهم فقالوا: "إنّا لا نرى إلّا أنَّ هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم هم الذين كُنَّا نتحدَّث أنّهم يظهرون علينا، فافتحوا لهم وصالحوهم"، ففتحوا له وصالحوه[٦]، وكرر خالد

(١) هو باب الأبواب، وحاليًا دربند، إحدى مدن روسيا في داغستان، على الساحل الغربي لبحر قزوين، ولها تاريخ مشهور (ينظر عند ياقوت، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدن، بيرت، دار صادر، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ١/ ٣٠٣، ولسترنج، كي، ترجمة وعناية: بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بيروت، مؤسسة الرسالة، بلدان الخلافة الشرقية، ٢١٤، وموسوعة الويكيبيديا في مادتي: داغستان، ودربند).

(٢) بَلَنْجَر: مدينة تقع على بحر الخزر، خلف باب الأبواب (ياقوت، معجم البلدان، ١/ ٤٨٩).

(٣) وذلك لشدة بأسهم.

(٤) الرَّدْم: سد يأجوج ومأجوج (الإدريسي، محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ٢/ ٨٤٩، ٩٢٣، وأغلب المصادر البلدانية تحدثت عنه، لكن عند الإدريسي تفاصيل جيدة).

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٥٨.

(٦) الأزدي، فتوح الشام، ص٦٧، وابن أعثم، ==

كلامه على أهل قنسرين، فقال لهم: "إنكم لو كنتم في السَّحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا"؛ فصالحوه[١]، وهذا يدلّنا على ثقة أولئك الفاتحين بصحة هدفهم؛ ولذا لما نزل المسلمون الشام جاء أصحاب هرقل إليه فقالوا: "قد أتتك العرب، وجمعت لك جموعًا عظيمة، وهم يزعمون أنَّ نبيهم الذي بُعث إليهم قد أخبرهم أنّهم يظهرون على أهل هذه البلاد، وقد جاءوك وهم لا يَشكُّون أنَّ هذا يكون، وجاءوك مع ذلك بنسائهم وأولادهم تصديقًا لمقالة نبيهم، يقولون لو دخلناها فتحناها ونزلنا بنسائنا وأولادنا"[٢].

المبحث الثالث
توجيهات القيادة والقادة وتطبيقاتهم لتحقيق هدف الجهاد

لقد أوضحت وصايا الخلفاء وتوجيهاتهم وأفعال القادة بأن الحرب هي لإعلاء كلمة الله فقط، وهذا يستلزم تحقيق مجموعة من المقاصد، مثل تحرير النَّاس من العبودية لغير الله، وإزالة العوائق أمام الدُّعاة لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض، وإزاحة المتسلطين والمتجبرين الذين يستعبدون العِباد ويفسدون في البلاد، ويمنعون وصول كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ للبشر الذين يحكمونهم، وحماية المنتسبين لدين الإسلام من بطش المخالفين. كما شَدَّدت تلك المفاهيم والمواقف على أنّ الجهاد ليس لطلب مغانم الدُّنيا، أو التوسّع في الملك والسُّلطان، أو استعمارًا واستغلالاً وتسخيرًا للبلاد والعباد لخدمة فئة أو جماعة أو طائفة معينة، وببساطة فإنّ الجهاد هو خير للبشرية جمعاء، ولصالح الشُّعوب الأخرى أكثر من صالح المجاهدين أنفسهم، وقد رأينا في مواقف كثيرة كيف أوضح الفاتحون لمن يقاومهم نظرتهم الكلية للكون والحياة، إذ كانت إمبراطوريات ذلك العصر قد قامت على نظرية الامتلاك والحق المطلق في تسخير البلاد والعباد لمصلحة فئات محددة، وبعضهم مزج هذا بفلسفات عقدية أخرى[٣]، بينما كان الفاتحون يشرحون لتلك الشُّعوب أنّ كل شيء لله سبحانه وتعالى، وأنّ النَّاس سواسية، ولا تفاضل إلا بالتقوى، والإنسان مُستخلف ليُقيم حكم الله في الأرض، والأمثلة على هذا كثيرة وبعضها يرد في ثنايا هذا البحث، ونذكر هنا ما جرى بين أبي عبيدة بن الجراح والرُّوم الذين تجمعوا لقتال المسلمين في فِحْل، فقد أرسلوا يقولون: "اخرج أنت ومن معك من أصحابك وأهل دينك من بلادنا التي تُنْبت الحِنْطة والشَّعير والفواكه والأعناب والثِّمار، فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم بلاد البؤس والشَّقاء"، ومما ردَّ به عليهم أبو عبيدة قوله: "أما

==
الفتوح، ١/ ١٤١.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٦٠١.

(٢) الأزي، فتوح الشام، ص٢٢.

(٣) مثل نظرية الحق الإلهي المقدس عند الفراعنة وعند الفُرس.

قولكم: اخرجوا من بلادنا، فلستم لها ولسنا بأهل، فلعمري ما كُنَّا لِنَخْرُجَ منها وقد أَذَلّكُم الله بنا فيها، وأورثناها، ونزعها من أيديكم، وصَيَّرها لنا، وإنَّما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، والله مالك الملوك، يؤتي الملك من يشاء، ويُعزُّ من يشاء، ويُذِلّ من يشاء"[(١)].

ومن أكبر الأدلّة على هدف الفتح الذي ذكرنا، هو عدم السَّماح لمن سَبَقَتْ له رِدَّة بالجهاد في خلافة أبي بكر وشطرًا من خلافة عمر، إذ إنَّ الصّديق جرَّد المرتدين من السِّلاح، ومنعهم من المشاركة في الفتوح، وقال لهم: "نَنْزِعُ منكم الحَلْقَةَ والكُرَاع[(٢)]، وتُتْرَكُون تَتَّبِعُون أَذْنَاب الإبل حتى يُرِي الله خليفة رسول الله والمؤمنين رأيًا يعذرونكم به"[(٣)]، ومن المقاصد في تركهم على هذه الحالة إلى "أنْ تظهر توبتهم وصلاحهم بُحسن إسلامهم"[(٤)]، كما أنّ السِّر في عدم إشراكهم في عمليات الفتح – على الرَّغم من حماس كثير منهم للتكفير عمّا بدر منهم – هو أنّ الجهاد دعوة للإسلام، ولا يصح أن يمثله إلا من تمثل حقيقة الإسلام من جميع جوانبه؛ ليتحقّق الهدف من الجهاد.

وحينما وجه أبو بكر قائديه خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم إلى العراق، كتب إليهما يقول: "استنفرا من قاتل أهل الرِّدة ومن ثَبَتَ على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي، فلم يشهد الأيام مرتد"[(٥)].

كما أمر خالد بن سعيد بن العاص حينما وجهه إلى الشام أن ينزل تيماء، وأن يدعو من حوله للجهاد، وأن لا يقبل إلا ممن لم يرتد[(٦)].

---

(١) الأزي، فتوح الشام، ص٩٩، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) الحَلْقَة: السلاح، والكُرَاع: الخيل (ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩ه (١٩٧٩م)، ١/ ٤٢٧ "حلق"، ٤/ ١٦٥ "كرع").

(٣) أبو عبيد، القاسم بن سلاّم، الأموال، تحقيق: خليل هراس، بيروت، دار الفكر، ص٢٥٤، (ح ٥١٠)، وسعيد بن منصور، أبو عثمان الجوزجاني، سنن، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الهند، الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ(١٩٨٢م)، ٢/ ٣٨٥، (ح٢٩٣٤)،

==

==

وابن أبي شيبة، المصنف، ٦/ ٤٣٧، (ح ٣٢٧٣١)، وأحمد، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني، فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، جدة، دار العلم، منشورات جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ٢/ ٨٩٣، وبعضه عند البخاري، الصحيح، ٩/ ٨١، (ح ٧٢٢١).

(٤) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، وإخراج وتصحيح محب الدين الخطيب، وبعض تعليقات عبدالعزيز بن باز، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، ١٣/ ٢١١.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٤٦.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٣٨٨.

وبقي من سبقت له رِدَّة لم يُشارك في الجهاد إلا في خلافة عمر في السنة الثالثة عشرة[١]، بعد أن ظهرت توبتهم وندمهم[٢]، على الرَّغم من حاجة الدَّولة الماسة للطاقات البشرية في ذلك الوقت، فإخضاع المرتدين كلّف الدولة الإسلامية خسائر كبيرة، وأهمها النَّقص في جنودها؛ نظرًا لكثرة من استشهد في تلك العمليات، وكثيرون أُصيبوا بجراحات بالغة صعب عليهم مواصلة الجهاد، أو على أقل تقدير أُرهق بعضهم من شدة بأس الحروب التي استمرت قرابة سنة، حتى أن الصِّديق لما طلب من قائديه خالد وعياض أن يسمحا لمن أراد الرجوع إلى أهله وألا يستفتحا بمتكاره[٣]، قالوا: "فَقَفَلَ أَهْلُ المدينة وما حولها وأَعْرَوهُمَا"[٤]، ولم يبقَ مع خالد إلا ألفا مجاهد فقط[٥]، بل ولما سُمح لمن سبقت له رِدَّةٌ بالمشاركة في عمليات الفتح، شَرَطَ عليهم عُمر ألّا يَتَوَلوا أي ولاية إدارية أو عسكرية[٦]، على الرَّغم من وجود طاقات متميزة فيهم، وصَدَقَ عُمر في حَدْسِهِ واتضح بُعْدُ نَظَرِهِ فيما بعد، إذ لما كان في خلافة عثمان ولّى من كان ارتد على بعض الأعمال استصلاحًا لهم، فلم يُصْلحهم ذلك، وأُصِيبَ جيش المسلمين في الشَّرْق، "وزادهم فسادًا أن سَادَهُمْ مَنْ طَلَبَ الدُّنيا، وعضلوا بعثمان"[٧].

وهذا فيه أعظم الرَّد على الذين يُفسِّرون حركة الفتح تفسيرات واهية، مثل: أنّها كانت بقصد القتل، أو البحث عن مغانم دنيوية، أو تفسيرها بأنّها حركة اقتصادية ومادية، أو أنّها لأغراض سياسية وذلك بإشغال الشَّعب بقضية خارجية، وذلك بعد حركة الرِّدة؛ لصرف المجتمع إلى قضية خارجية وهي الفتوحات؛ مما يُتيح للقيادة تحقيق الأمن الداخلي للدولة الإسلامية، أو تبرير الجهاد بأنّه للدفاع، وذلك بتأمين الحدود من أي تهديد واقع أو محتمل، أو رحمة ببعض الشعوب، كإنقاذ العرب الذين كانوا

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٤٤٨، ٤٦٠.

(٢) ظهر ذلك برأي المثنى بن حارثة الذي عرضه على الصديق في مرض وفاته (المصدر السابق، ٣/ ٤١٣-٤١٤).

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٦.

(٤) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٦.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٦.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٣٨٩، وذكرت رواية أن عمر طلب "ألا يولى رؤساء أهل الردة على

==

==

مائة" (المصدر السابق، ٣/ ٥٥٧)، وفي خبر آخر "ألا يولوا إلا على النَّفر وما دون ذلك" (المصدر السابق، ٤/ ٢٥)، والنَّفر: ما دون العشرة من الرجال (الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٤٨٥)، فيبدو أن المقصود القيادة للجمع الكبير، حتى أنه يولى في خلافة عمر التابعي ولا يولى من سبقت له ردة (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٥).

(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٥٨.

خاضعين للفرس والروم[١].

ولو كان ذلك كذلك، لكان أول من يُشْرك في الجهاد هم الذين رجعوا إلى الإسلام بعد الرِّدة، حتى تتحقّق هذه المزاعم التي يدّعيها البعض، والغالبية لا يُفرِّقون بين الدوافع وبين النتائج، فالجهاد حقق ثمراتٍ كثيرة فوق ما ذكروه، ولكن دوافع الفاتحين لم تكن كما صوروه.

ومما يدلّ على حضور الهدف السَّامي لدى المجاهدين هو قوة تأثير الفاتحين الأوائل في نفوس السُّكان المحليين تأثيرًا إيجابيًا، فمثلاً بعد معركة نِهاوند نجد أن جُلّ جيش المسلمين الذي يواصل عمليات الفتح هو من السكان الأصليين، هذا فضلاً عن كثرة المنضمين للجيش الإسلامي منذ وقت مبكر، بل العجب أنّ أمراء الثُّغور التابعة

(١) ممن وقع بمأزق هذه التفسيرات: سعيدوني، ناصر الدين، الفتوحات الإسلامية وأثرها في مجتمع الجزيرة العربية، بحث مقدم للندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ١٥-٢١ محرم ١٤٠٤هـ، قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الكتاب الثالث، الجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، الجزء الأول، ص٢٢٥، وحسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٦٤م، ١/ ٢١٤، وسرور، محمد جمال الدين الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ص٣٤، وفروخ، عمر، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م، ص٩٦، وياسين، نجمان، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، العراق، بيت الموصل، ١٩٨٨م، ص١٦٦-١٦٧، والحديثي، نزار عبداللطيف، الأمة والدولة في سياسة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، بغداد، دار الحرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص١٩١-١٩٣، وفرج، محمد، المثنى بن حارثة الشيباني فارس بني شيبان، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، د.ت، ص٦٣-٦٤، والسامرائي، عبدالجبار محمود، معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، بيروت، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص١٩-٢٣، والشامي، أحمد، الخلفاء الراشدون، بيروت، المركز العربي للثقافة

==

==

والعلوم، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص٨٣-٨٥، وجب، هاملتون، دراسات في حضارة الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، ص٧، فضلاً عن كتابات المستشرقين الآخرين في هذا الباب، وقد رد عليهم كثيرون، منهم: ياسين، محمد نعيم، افتراءات حول غايات الجهاد، بيروت، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م)، والعلياني، علي بن نفيع، أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، والمصري، جميل بن عبدالله، دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، دمشق، دار القلم، وبيروت، الدار الشامية، د.ت. والحق أن الموضوع يحتاج إلى زيادة بحث متعمق من قِبل هيئات علمية متمكنة، وما نُشر يحتاج إلى تدقيق في بعض أفكاره وإعادة نظر.

للكوفة في السنة السابعة عشرة، وهي حُلوان وماسَبَذان والموصل وقرقيسياء كلهم من الفُرس[١]، ولما رأى أهل الشام وفاء المسلمين وحسن سيرتهم صاروا أشداء على أعداء المسلمين، وعونًا لهم، وبعث أهل كل مدينة ممن صالحهم المسلمون يتجسسون الأخبار عن الرَّوم وعن ملكهم وما يُريدون أن يصنعوا، فحذروا الفاتحين بما يدبره الرُّوم من جمع عظيم للمسلمين إبان معركة اليرموك[٢]، وهذا من نوادر التاريخ، وهو يدل على سماحة هذا الدين وعظمة أولئك الفاتحين الذين لم يخرجوا لطلب دُنيا من مال وجاه ومنصب، وإنما أراقوا دماءهم وبذلوا أموالهم لتكون كلمة الله هي العليا، وما كان لتلك الشُّعوب أن تسكت وتستجيب لو كانت الأهداف غير ذلك، وهذا التاريخ القريب خير شاهد، ففي موجة الاستعمار في العصر الحديث لم تهدأ الشعوب التي استُعمرت إلا بعد أن تخلصت من المحتلين، على الرَّغم مما قدمته كثير من الدول المُستعْمِرة لتلك الشعوب من خدمات دنيوية كبيرة لم تكن تحلم بها من قبل، بل بعضها لم يحصل على مثلها من بعد، ومع ذلك أصبح طرد المستعمرين تاريخًا يحتفلون به كل سنة.

ومن أعظم ما يُرَدُّ به كذلك على من يُفَسِّر حركة الفتح تفسيرات اقتصادية ومادية: كُتب الصلح مع البلاد المفتوحة، ففيها عدم تحميل السكان ما لا يُطيقون من الجزية، وألا يُؤخذ منهم إلا ما قُرِّر عليهم، ومسامحة المرضى والزَّمنى والعجزة، ومن انقطع عن الدُّنيا من القسيسين والرُّهبان والسائحين في الأرض، حتى وهؤلاء يفعلون ذلك تعبدًا في دينهم لا عجزًا وضعفا، وهذه الكتب كثيرة ذكرها يطول، وبحثها في موضوع آخر. وقد كان الفاروق يؤكد دائمًا على سلامة المؤمنين مهما كانت المكاسب المادية، ومن ذلك قوله: "تالله لمسلمٌ أحبُّ إليَّ ممَّا حَوَتِ الرُّوم"[٣]، بل وحتى مقدار الجزية كان شيئًا رمزيًا مقارنة بما كان يأخذه حكام ذلك العصر، لدرجة أن أهل دمشق وقد كانوا يُحاربون الفاتحين، وأرسلوا يطلبون مساعدة الرُّوم لهم، ومما قالوا في رسالة لهم لقيصر: "ورضوا منَّا من الجزية باليسير"[٤].

وقد أوضح الصِّديق هدف الفتوح حينما استشار كبار الصحابة في إرسال الجيوش إلى الشام، ومما قال: "وقد رأيتُ أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام؛ ليؤيد الله المسلمين ويجعل الله كلمته العليا"[٥]، وبيّن نوايا جيشه حينما أوصى أبا عبيدة بن الجراح وهو يودّعه إلى الشام، فقال: "تخرج في أشراف النَّاس وبيوتات العرب وصُلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يُقاتلون إذْ ذاك على الحَمِيَّة،

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٤٩.

(٢) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٩ه (١٩٧٩م)، ص١٣٩.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٥٩.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص٩٣.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٦٣.

وهم اليوم يُقاتِلون على الحِسْبَة والنِّية الحَسَنَة"[١]، وفي رسالة منه إلى أبي عبيدة قال: "وقد علمتَ والحمد لله قد غَزَاهُم رجالٌ كثير من المسلمين يُحبون الموت حُب عدوهم للحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويُحبّون الجهاد في سبيل الله أشدّ من حبّهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم"[٢]، ويوضّح جابر بن عبد الله صِدق نِية الفاتحين فيقول: "والله الذي لا إله إلا هو، ما اطَّلَعْنَا على أحدٍ من أهل القادسية، أنّه يريد الدُّنيا مع الآخرة، ولقد اتَّهَمْنَا ثلاثة نفرٍ، فما رأينا كالذي هَجَمْنَا عليه من أَمَانَتِهِمْ وَزُهْدِهِمْ: طُليحة بن خُويلد، وعَمرو بن معد يكرب، وقيس بن المَكْشُوح"[٣]، وهذا أحد الجنود المسلمين في معركة فِحْل أُصيب بجرح شديد على حاجبه الأيمن، فقال له أحدهم: أَبْشِر! فإنّ الله مُعافيك من هذه الضَّربة، فَرَدَّ عليه: جعل الله هذه الضَّربة شهادة، وأهدى إليَّ مثلها أخرى، فوالله إنَّ هذه الضَّربة أحبّ إليَّ من مثل جبل أبي قُبيس ذهبًا أحمر، ثم حمل على الرُّوم فما زال يُقاتل حتى قُتل[٤]. والأخبار في هذا المعنى كثيرة جدًا.

أما الوقائع والأمثلة التي تدلّ على صدق نية المسلمين في هدفهم، وأنّهم لم يخرجوا لطلب الدُّنيا فهي أكثر من أن تُحصى، وسنورد الآن بعضها، ووقائع أخرى مكانها في غير هذا الموضوع، فلما حاصر المسلمون دمشق بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، كان لها عدة أبواب، فقسّم أبو عبيدة جيشه على الأبواب، وجعل على كل قسم قائدًا، فاستطاع خالد بن الوليد مع فرقته أن يقتحموا السُّور وأن يفتحوا الباب الذي بإزائهم، ويتدفقوا داخل المدينة، فخشي أهل دمشق من أن تؤخذ مدينتهم عنوة، ففتحوا الأبواب لقادة المسلمين الآخرين، وتنادوا بالصُّلح، وقالوا: "ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب"، وكان المسلمون من قبل يدعونهم للصلح أربعة أشهر فيأبون ويهددون، فدخل أهل كل باب بصلح ممّا يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة، والتقوا جميعًا وسط المدينة، ولسمو هدف المسلمين وبعدهم عن المقاصد الدنيوية أجروا ناحية خالد مجرى الصلح، على الرَّغم من أنّ أهل دمشق لم يصالحوا إلا بعد أن تأكدوا من سقوط مدينتهم[٥]، وكونهم كانوا عونًا

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص١٢.
(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص٢٥، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٠٢.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٩-٢٠.
(٤) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٩٢-١٩٣.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٣٩-٤٤٠، والأزدي، فتوح الشام، ص٩١، والبلاذري، فتوح البلدان، ص١٦٦-١٦٧، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ١١٢، ١١٦-١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢-١٢٣، ١٢٧، مع اختلاف بين الروايات فيمن دخل أولاً عنوة، ويُنظر تعليق ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله التركي، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ (١٩٩٧م)، ٩/ ٥٨٥.

للروم على المسلمين قبل استسلامهم، بل كادوا يقتلون أحد قادة المسلمين، وهو أبو عبيدة، حينما هاجموا مؤخرة الجيش وهو ذاهب إلى أجنادين[١]، فتخلّى المسلمون عن حقهم في إجراء ولو نصف المدينة على أنها فُتحت عنوة إلى المصالحة، ولو جعلوا المدينة كلها عنّوة لحُق لهم ذلك، ولكنهم لا همَّ لهم إلا هداية البشرية.

وتكرر مثل هذا في فتح مدينة عين شمس في مصر، إذ حاصرها المسلمون من جهتين، فلما كاد عمرو بن العاص أن يفتتح الجهة التي بإزائه فتح القوم له الباب وطلبوا الصُّلح، بينما دخل الزبير بن العوام من الجهة المقابلة عنوة، ولكن الفاتحين أجروا ما أُخذ عنوة مجرى الصُّلح[٢]، وكذا فتح حصن بابليون في مصر، إذ بقي الفاتحون أشهرًا يحاصرونه، ثم استطاعوا الدُّخول وفتحوا باب الحصن، فطلب المقوقس الصُّلح، فصالحه عمرو بن العاص، مع أنّ المسلمين دخلوا عنوة[٣]، ومثله الإسكندرية[٤]، بل إنّ الفاتحين عاملوا جميع مصر معاملة أرض الصُّلح، وقد دخل بعضها عنوة[٥]، وكانت قرى من مصر قاتلت فسباهم المسلمون، ووصل بعض السَّبي إلى المدينة، فردهم عمر بن الخطاب، وجعلهم أهل ذِمَّة، بعد أن تمّ الاتفاق على أن تكون مصر كلها صُلح[٦].

أما سياسة عمر مع الأرض المفتوحة عنوة فمشهورة، وهي تدل على عِظم نزاهة الخلافة وبعدها عن المطامع الدنيوية، وسلامة قصدها، فقد رفض الفاروق أن يقسمها بين الفاتحين، وقد طالبوه مرارًا بذلك واحتجوا عليه بفعل النبي ﷺ، ولكنه قال: "فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟"، فأقرَّ أهل تلك البلاد على أراضيهم، وضرب عليها الخراج[٧]، وقد كان يأمر جنده أحيانًا بترك السَّبي

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص٧٥، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٤٤.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٠٨-١٠٩.

(٣) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٦٣، ونحوه ص٦٩-٧٠.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣١٠.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٠٩، والبلاذري، فتوح البلدان، ص٢٩٩-٣٠٢، وثمة خلاف بين الفقهاء في مسألة دخول مصر عنوة أو صلحًا، ولكننا ننقل الوقائع التاريخية، والتي في الأغلب لها أصول واقعية؛ إذ يُدرك الدارس لعمليات الفتح على مختلف الجبهات أن من أهم أسباب الاختلاف في دخول المدن عنوة أو صُلحًا هو تكرار فتحها، فكثيرًا ما تنتقض المدن والقُرى فيُعاد فتحها، ويترتب على ذلك اختلاف الطريقة في الفتح، ونوعية الاتفاق المبرم مع أهل تلك المدينة، ومن ثَمَّ فإن الروايات قد تكون كلها صحيحة، ولكن التحقيق عند الحكم عليها يجب أن يكون في أيها كان الآخِر.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٠٣.

(٧) أبو يوسف، الخراج، ص١٤٠-١٤١، وأبو عبيد، الأموال، ص٧١ (ح ١٤٦)، والروايات عن عمر في هذا المعنى كثيرة جدًا في المصادر.

مهما كانت شِدَّة المعركة عليهم، كما في فتح الأهواز ومناذر وتُستر في فتحها الثاني[١]، وقد أثمرت هذه السياسة الاقتصادية آثارها العظيمة، ومن أكبرها تسارع أهل تلك البلاد إلى الإسلام.

ومثال آخر يعجز القلم واللسان عن التعليق عليه، لما اجتمعت حشود الرُّوم للمسلمين في الشام تحضيرًا لمعركة اليرموك، خشي القائد أبو عبيدة أن لا يستطيع المسلمون حماية السُّكان الذين صالحهم على الجزية من أهل حمص وأهل دمشق، فأرسل إليهم حبيب بن مسلمة وطلب منه أن يَرُدَّ عليهم الجزية التي أخذوها منهم، وقال له: "اردد على القوم الذين كُنَّا صالحناهم من أهل البلد ما كُنَّا أخذنا منهم، فإنَّه لا ينبغي لنا إذ لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئا، وقُل لهم: نحن على ما كُنَّا عليه فيما بيننا وبينكم من الصُّلح لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما ردُّنا عليكم أموالكم أنَّا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم، ولكنَّا نتنحَّى إلى بعض الأرض، ونبعث إلى إخواننا فيقدموا علينا ثم نلقى عدونا فنقاتلهم، فإن أظفرنا الله بهم وفَّينا لكم بعهدكم إلا أن لا تطلبوا ذلك"، ففعل حبيب ما أمره به أبو عبيدة[٢]! وكتب أبو عبيدة كذلك إلى كل والٍ ممن خلَّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جُبي منهم من الجزية والخراج[٣].

وأرسل الفاروق إلى أبي موسى الأشعري يأمره أن يبعث بعض جيشه لمواجهة تحركات الأعاجم في فارس، فكان ممن أرسل جرير بن عبدالله البجلي والنعمان بن مقرن المزني إلى رام هرمز على أن يدعوان أهلها إلى الإسلام، ففتحها جرير قسرًا، وأخذ الأموال والنِّساء والذُّرية، فادّعى أبو موسى أنه سبق وأعطى أهل المدينة الأمان وأجّلهم ستة أشهر حتى يروا رأيهم، وبعد مشاورات طلب الفاروق منه أن يُحكِّم صلحاء جيشه من الصحابة، فإن حلف أبو موسى على قوله رُدّ كل شيء إليهم، وإذا كانت امرأة قد حملتْ وهي في السَّبي أن تُحرس وتُجرى عليها النَّفقة حتى تَضَعْ، ثم تُخيَّر بين الإسلام والمقام مع صاحبها أو الرجوع إلى بلادها، فحلف أبو موسى، فرد الفاتحون ما أخذوه[٤]!.

وهذه قصة عجيبة تدل على عِظم صدق نية الفاتحين، لما طلب صاحب الإسكندرية الصُّلح من عمرو بن العاص على أن يردّ المسلمون عليهم السَّبي الذي عندهم، أرسل عمرو إلى الفاروق بذلك، فوافق الخليفة تغليبًا للمسالمة، وقال: "على أن تُخَيّروا مَنْ في أيديكم من سَبْيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٣١، ٥٣٣، ٥٣٨.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص١٣٧-١٣٨، وتنظر ص١٤٢، وذكر بعض القصة البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٧.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٩.

(٤) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١١-١٢.

المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وُضِعَ عليه من الجزية ما يوضَعُ على أهل دينه"، فجمعوا السَّبايا واجتمع المسلمون والنَّصارى، قال الرَّاوي: "فجعلنا نأتي بالرَّجل ممن في أيدينا، ثم نُخيّره بين الإسلام وبين النَّصرانية، فإذا اختار الإسلام كبّرنا تكبيرة هي أشدّ من تكبيرنا حين تُفتح القرية، ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى، ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعًا شديدًا، حتى كأنه رجل خرج منَّا إليهم"[(١)].

ومن الأخبار النَّادرة التي تُثبت سمو هدف الفاتحين، أنّ عبدالرحمن بن سمرة لما فتح بلاد الدَّاور في سجستان، دخل على صنم لهم يُقال له (الزُّور)، وكان من ذهب، وعيناه ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للقائم عليه: "دونك الذَّهب والجوهر، وإنّما أردتُ أن أُعلمك أنَّه لا يضرُّ ولا ينفع"[(٢)]!، وكان هذا في خلافة عثمان[(٣)].

أما الأمثلة على المستوى الشخصي في زهد القادة والجنود مما يثبت سلامة نية الفاتحين في عصر الرَّاشدين، فتحتاج إلى إفراد مبحث خاص به، وإنما مرادنا هنا إيضاح السياسة العليا للدولة.

ونجد في وصايا الراشدين لجيوشهم أسمى المعاني الأخلاقية، والقيم الإنسانية التي لم تعرفها البشرية، إذْ كانوا يُشدِّدون على تحقيق الهدف الأعلى بأساليب نزيهة، ويُحذِّرون من ارتكاب أبسط المخالفات حتى في حقوق الحيوان، على الرَّغم من حالة الحرب التي يخوضونها، وفي هذا أكبر دليل على عظمة هدف العقيدة العسكرية في ذلك العصر، ومن تلك الوصايا: وصية الصِّديق لجيش أسامة بن زيد، قبل أن ينطلق إلى أرض الشام، فقد سار مع الجيش على قدميه، ثم قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قِفُوا أُوصِكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي: لا تَخُونُوا وَلا تَغِلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا طِفْلا صَغِيرًا، وَلا شَيْخًا كَبِيرًا وَلا امْرَأَةً، وَلا تَعْقِرُوا نَخْلا وَلا تُحَرِّقُوهُ، وَلا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً، وَلا تَذْبَحُوا شَاةً وَلا بَقَرَةً وَلا بَعِيرًا إِلا لِمَأْكَلَةٍ، وَسَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ، فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَوْفَ تَقْدَمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَكُمْ بِآنِيَةٍ فِيهَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ، فَإِذَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا، وَتَلْقَوْنَ أَقْوَامًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ[(٤)] وَتَرَكُوا حَوْلَهَا مِثْلَ الْعَصَائِبِ،

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٠٥-١٠٦.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٥٥.

(٣) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع، الطبقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجين الطبعة الأولى، ١٤٢١ه (٢٠٠١م)، ٧/ ٤٩.

(٤) أي حلقوا وسط رؤوسهم وتركوها مثل أفاحيص القطا، وهي الأماكن التي تُفرِّخ فيها (الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ==

فَاخْفِقُوهُمْ بِالسَّيْفِ خَفْقًا، انْدَفِعُوا باسم الله، أفناكم الله بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ"[(١)].

ويلفت النظر دقة تفريق الصِّديق بين رجال الدِّين النَّصارى، فقد نهى عن قتل من تفرَّغوا للعبادة في الصَّوامع، وهم الرُّهبان، وأَمَرَ بقتل الذين "فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ وَتَرَكُوا حَوْلَهَا مِثْلَ الْعَصَائِبِ"، وهؤلاء هم الشَّمَامِسة[(٢)]، مع أنهم من رجال الدِّين، قال ابن إسحاق: "حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَقَالَ لِي: هَلْ تَدْرِي لِمَ فَرَّقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَأَمَرَ بِقَتْلِ الشَّمَامِسَةِ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ الرُّهْبَانِ؟ فَقُلْتُ: لَا أَرَاهُ إِلَّا لِحَبْسِ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ. فَقَالَ: أَجَلْ، وَلَكِنَّ الشَّمَامِسَةَ يَلْقَوْنَ الْقِتَالَ فَيُقَاتِلُونَ دُونَ الرُّهْبَانِ، وَإِنَّ الرُّهْبَانَ دَأْبُهُمْ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا، وَقَدْ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾[(٣)]"[(٤)].

وفي وصية مشابهة أخرى للصّديق لما سيّر جيوشه إلى الشام، توضّح هدف الفتح، وسلامة المقصد، وعظمة المبادئ، فقد مَشَى "مَعَهُمْ يُوَدِّعُهُمْ، حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ، ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى الله، اغْزُوا فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، فَإِنَّ الله نَاصِرٌ دِينَهُ، وَلَا تَغُلُّوا وَلَا

==

الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ٤/ ١٥٢ "فحص"، والجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ه (١٩٨٧م)، ٣/ ١٠٤٨ "فحص").

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٢٢٦-٢٢٧، والأزدي، فتوح الشام، ص٨، وابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١٢١، وذكر أنه كتاب أبي بكر إلى أمراء الأجناد بالشام، وأن معاوية أخرجه بعد فتحه لقبرص في زمن عثمان فقرأه على جنوده، وابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، اعتنى به: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٨٩ه (١٩٦٩م)، ١/ ١٢٨-١٢٩، والبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ه (٢٠٠٣م)، ٩/ ١٥٢، ١٥٣ (ح ١٨١٤٨، ١٨١٤٩، ١٨١٥٠، ١٨١٥٢)، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٧٧، ٧٨، ٦٥/ ٢٤٧-٣٤٨، وثلاثتهم ورابعهم الأزدي ذكروه من وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حينما وجهه إلى الشام.

(٢) الشَّمَامِسَة: جمع شَمَّاس، وهي رُتبة دينية في الكنيسة النصرانية، دون القسيس (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٨٧١ "جاثليق"، ومصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، القاهرة، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشر دار الدعوة، ص٤٩٤ "شمس").

(٣) سورة البقرة.

(٤) البيهقي، السنن الكبرى، ٩/ ١٣٥، وعنه ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٧٨، وينظر أيضًا ما ذكره أبو عبيد، القاسم بن سلاّم، غريب الحديث، تحقيق: محمد عبدالمعيد خان، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ه (١٩٦٤م)، ٣/ ٢٣١.

تُمَثِّلُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ الله فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ، ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا عَلَيْهِمْ، فَإِنِ اخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمُ حُكْمُ الله الَّذِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَلَا فِي الْغَنِيمَةِ شَيْءٌ، حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ، وَكُفُّوا عَنْهُمْ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ الله"[(١)].

ويؤكد سلامة قصد الفاتحين وحرصهم على تحقيق هدف الجهاد الحقيقي كتب الخلفاء للقادة، فمن ذلك ما كتبه أبو بكر لخالد حينما أمره بالمسير بعد اليمامة إلى الفُرس، قال: "سِرْ إلى العراق حتى تَدْخُلَهَا ... وتَأَلَّف أَهْلَ فَارِسَ ومَنْ كان في مُلْكِهِم من الأُمَمْ"[(٢)]، ولا يكون التألّف إلا بالأعمال الحميدة والقيم المحمودة، وقد أوصى أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص حينما وجهه إلى الشام بمثل هذه الوصية أيضًا[(٣)].

وكتب أبو بكر أيضًا لخالد ولعياض أول أمرهما: "وجَالِدُوهُمْ عَمَّا في أَيْدِيهم، واستعينوا بالله واتَّقُوه، وآثروا أمْرَ الآخِرَة على الدُّنيا يجتمعا لكم، ولا تُؤثِرُوا الدُّنيا فَتُسْلَبُوهُمَا. واحْذَرُوا ما حَذَّركم الله بترك المعاصي ومُعَاجَلة التَّوبة، وإيَّاكُم والإصرار وتأخير التَّوبة"[(٤)]، وفي هذا الكلام معانٍ عظيمة، ومنها نزاهة القيادة وبُعدها عن المطامع الدنيوية وشهوة السلطان، وتأكيد على هدف

(١) ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد، الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦م)، ١/ ٤٧٨-٤٧٩ (ح ٧٥٩)، والبيهقي، السنن الكبرى، ٩/ ١٤٥ (ح ١٨١٢٥)، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٧٦، وأخرج بعضه مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦ هـ (١٩٨٥م)، ٢/ ٤٤٧ (ح ١٠)، والمروزي، أحمد بن علي بن سعيد، مسند أبي بكر الصديق، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م)، ص٥٩-٦٢ (ح ٢١)، وابن أخي مِيْمِي الدَّقَّاق، محمد بن عبدالله، فوائد ابن أخي ميمي الدقاق، تحقيق: نبيل جرار، الرياض، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)، ص٢٥٤-٢٥٥ (ح ٥٤٩).

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٤٣.

(٣) المصدر السابق، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٨٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٧٢.

الجهاد، أمّا التذكير بإيثار الآخرة على الدُّنيا فلا يكون لمن كانت له مآرب دنيوية أخرى.

ولنتأمّل وصية عمر لجيوشه، والتي لا نجد لها مثيلاً في دساتير الدُّنيا، فضلاً عن تصرفات العسكريين أثناء الحروب، قال سليمان بن بُرَيْدَة بن الحصيب الأسلمي: "إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَيْشٌ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بَعَثَ عَلَيْهِمْ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَيْشٌ فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ: "سِرْ بِسْمِ الله، تُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، فَإِذا لَقِيتُم عَدوكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ: ادْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلام، فَإِنْ أَسْلمُوا فَاخْتَارُوا دَرَاهِم فَعَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمُ الزَّكَاةَ، وَلَيْسَ لَهُم فِي فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ نَصِيبٌ، وَإِنِ اخْتَارُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَكُمْ فَلَهُمْ مِثْلُ الَّذِي لَكُمْ وَعَلَيْهِمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْكُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَة، فَإِن أقرُّوا بالجزية فقاتلوا عدوهم من ورائهم وفرغوهم لخراجهم، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلُوهُمْ فَإِنَّ الله نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ. وَإِنْ تَحَصَّنُوا مِنْكُمْ فِي الْحِصْنِ فَسَأَلُوكُمْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ الله وَحُكْمِ رَسُولِهِ فَلا تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ الله وَلا حُكْمِ رَسُولِهِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حُكْمُ الله وَحُكْمُ رَسُولِهِ فِيهِمْ، وَإِنْ سَأَلُوكُمْ أَنْ تُنْزِلُوهُمْ عَلَى ذِمَّةِ الله وَذِمَّةِ رَسُولِهِ فَلَا تعطوهم ذمَّة الله تَعَالَى وَلا ذمَّة رَسُولِهِ، وَأَعْطُوهُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَلَا تغدروا وَلَا تَغُلُّوا وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا"[1].

كما كان الفاروق "إذا بَعَث أُمراءَ الجيوش أوصاهم بتقوى الله العظيم، ثم قال عند عَقْد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله، وامضُوا بتأييد الله بالنَّصر وبلزُوم الحَقّ والصَّبر، فقاتِلُوا في سبيل الله مَن كَفَر بالله، ولا تعتدُوا إنَّ الله لا يحب المعتدين، ولا تَجْبُنوا عند اللقاء، ولا تُمَثِّلوا عند القُدْرة، ولا تُسْرِفوا عند الظُّهور، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقَّوْا قتلَهم إذا التقى الزَّحفان، وعند حُمَّة النّهَضات[2]، وفي شَنَّ الغارات، ولا تَغُلُّوا عند الغنائم، ونَزِّهوا الجهاد عن عَرَض الدُّنيا، وأبشروا بالرِّبَاح في البيع الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم"[3].

ونجد في الوصايا السابقة تحديد للأهداف العليا بدقّة، وتركيز على قوانين التعامل أثناء الحرب، والتي تفيض بالرّحمة والعدل والإنسانية، ومجال تفصيلها في بحث آخر، وإنما نُركِّز هنا على مضمون هذا البحث فقط.

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٩٣-١٩٤، وسعيد بن منصور، سنن، ٢/ ٢١٦ (ح ٢٤٧٦)، والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٨٦-١٨٧.

(٢) حُمَّة النَّهضَات: شِدَّتِهَا ومُعْظَمها، وحُمَّةُ كل شيءٍ: مُعْظَمه (ابن الأثير، النهاية، ١/ ٤٤٥ "حمم").

(٣) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدّينوري، عيون الأخبار، تحقيق، منذر محمد أبو شَعْر، بيروت وعمّان، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م)، ١/ ١٦٧، وابن عبدربه، العقد الفريد، ١/ ١٢٨.

ولا يغيب عن القيادة البحث في تأخّر أسباب النَّصر، وإرجاع ذلك إلى ضعف استحضار هدف الجهاد عند بعض الجند، فلما تأخّر فتح الإسكندرية قال الفاروق: "ما أبطأوا في فتحها إلا لِما أحدثوا"، ثم كتب إلى عمرو بن العاص يقول: "أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدُّنيا ما أحبَّ عدوكم، وإنّ الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنتُ وجّهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرَّجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضّهم على قتال عدوهم، ورغِّبهم في الصبر والنيّة، وقدّم أولئك الأربعة في صدور النّاس، ومُر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزَّوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرَّحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النَّصر على عدوه"[١].

كما يحرص قادة جيوش المسلمين دائمًا على تكرار تذكير جنودهم بما خرجوا لأجله، فمن خطبة النُّعمان بن مُقَرِّن في جيشه يوم نهاوند: "وقد ترون مَنْ أنتم بإزائه من عدوكم وما أخطرتم وما أخطروا لكم، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرِّثة وما ترون من هذا السَّواد، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبَيْضتكم، ولا سواءٌ ما أخطرتم وما أخطروا، فلا يكونُنّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم، واتقَى الله عبدٌ صدق الله وأبلى نفسه فأحسن البلاء، فإنكم بين خيريْن منتظرَيْن، إحدى الحسنيين، من بين شهيد حيٍّ مرزوق أو فتح قريب وظفَر يسير"[٢].

وقوله: أخطروا وأخطرتم، من الرِّهان، والمعنى كأنكم تتراهنون، فهم جعلوا رِهانهم الرِّثَّة، وهي رديء المتاع، وأراد الغنائم فصغّر من شأنها تحقيرًا لها، وأنتم جعلتم رِهانكم أعظم الأشياء قدرًا وهو الإسلام[٣].

فالقتال لأجل الدِّين فقط، وما يتحقّق بعد النَّصر من حسنات الدُّنيا فهو فضل من الله ونعمة، وليست هدفًا ولا سببًا لقتال الآخرين، وهي بنظره حقيرة رديئة لا تستحق كل تلك التضحيات، وهذا أبو عبيدة بن الجراح يَعِظُ جيشه قُبيل الاشتباك مع الرُّوم في معركة فِحْل، ومما قال لهم: "كونوا عباد الله أولياء الله، وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم

(١) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٧٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٣١.

(٣) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدّينوري، غريب الحديث، تحقيق: عبدالله الجبوري، بغداد، مطبعة العاني، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، ٢/ ٤٣٢-٤٣٣، والزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، ١٩٧١م، ١/ ٣٨٣-٣٨٤ "الخاء".

في الدُّنيا"[١].

ونجد وضوح العقيدة العسكرية أيضًا في عصر الراشدين في كتب القادة العسكريين التي يرسلونها إلى أهل البلاد المفتوحة، وكذا محاورات الرُّسل والوفود التي جرت العادة أن يرسلها القواد قبل القتال، وكلها تركِّز على أنّ الهدف من الجهاد هو إعلاء كلمة الله دون الطمع في الملك والثروة والأرض، ومن ذلك كتاب خالد لملوك الفُرس، وفيه: "بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد ... فادخلوا في أمرنا ندَعكم وأرضَكم، ونجُوزكم إلى غيركم"[٢].

وقال النُّعمان بن مقرِّن لملك الفرس يزدجرد: " فنحن ندعُوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كلَّه، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرّ هو أهون من آخر شرٍّ منه: الجِزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خَلَّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجِزاء قَبِلْنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم"[٣].

وهذا فيه رد صارخ على التفسيرات الواهية للفتوح، فهذه النُّصوص توضح أن هدف الجهاد ليس الاستعمار ونهب الثروات واستعباد البشر لصالح شعب آخر، وليس توسيعًا لرقعة الدولة وإشباعًا لنزعة الملك وعظمة السلطان، قال: خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم!!، فما أروع هذا الدِّين وما أصدق الفاتحين الأوائل!!، لا ما تزعمه دول الاستعمار الحديثة بادعائها نشر الحُريات وتطبيق حقوق الإنسان.

وحينما قابل زَهْرة بن حَوِيّة رستم قبل معركة القادسية وجرى بينهما حوار حاول فيه رستم بأسلوب ليِّن إقناع زهرة بالرجوع نظير مقابل مادي سخي للمسلمين، وذكّره بصنيعهم للعرب في الجاهلية، وكرر ما سبق وعرضه يزدجرد على المسلمين، بأن يرجعوا ويتكفل الفرس بتخصيص مورد مادي لهم، وفي كل مرة يدور نقاش بين دعاة المسلمين وبين قادة الفرس يستمر أولئك بطرح هذه الفكرة، في حين يحاول دعاة المسلمين إقناعهم بأنّ هدفهم ليس المادة، وأنّهم مستعدون للرجوع بأقل مما يعرضه عليهم الفرس، فقط أن يسلموا ويُطبِّقوا شرع الله في بلادهم.

قال زهرة لرستم: "صدقتَ، قد كان ما تذكر، وليس أمرُنا أمرَ أولئك ولا طَلبتنا. إنا لم نأتكم لطلب الدُّنيا، إنما طلبتنا وهمَّتنا الآخرة. كنَّا كما ذكرت، يدين لكم من ورد عليكم منَّا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم. ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربِّه، فأجبناه ... فقال له رستم: وما هو؟ قال: أمَّا عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا

(١) الأزي، فتوح الشام، ص١١٨.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٧٠.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ٤٩٩.

رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى. قال: ما أحسن هذا! وأيّ شيء أيضًا؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى. قال: حسنٌ، ما أحسن هذا! ثم قال له رستم: أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه، ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟ قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجة. قال: صدقتني والله، أمَا إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدَعوا أحدًا يخرج من عمله من السِّفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدَّوا طَوْرهم، وعادَوْا أشرافهم. فقال له زهرة: نحن خيرُ النَّاس للنَّاس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، نطيع الله في السّفلة، ولا يضرنا من عصى الله فينا"[1].

فالهدف واضح وجلي، وهو أن يكون الناس عبادًا لله وليسوا عبادًا للعباد، وأن تترك لهم حرية الاختيار، وإعلان بأنّ المسلمين ليست لهم مطامع دنيوية، وأنّ البشر متساوون فلا احتلال للبلاد ولا استغلال للعباد، وتكرّر هذا الكلام أيضًا من ربعي بن عامر لرستم بكلام رصين ومتين لا يُعجب الطغاة والمتسلطين، إذْ قال له: "الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدُّنيا إلى سَعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقه لندعوهم إليه، فَمَن قَبِل منَّا ذلك قَبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضَه يليها دُوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفضي إلى موعود الله".

ثم قال له: "اختَر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام ونَدَعك وأرضك، أو الجِزاء، فنقبل ونكفّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنتَ إليه محتاجًا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا"[2].

وهذه النصوص المستفيضة عن هدف الفاتحين هي التي يجب الاستشهاد بها، والحكم عليها، لا كما يفعل المستشرقون ومرضى النفوس حينما يجتزئون كلامًا، أو يستشهدون بموقف، ليُثبتوا أحاكمهم السيئة والجائرة على مقاصد الفاتحين، وفي الأغلب إن صحت تلك النصوص المبتورة عن سياقها فإن لها دلالتها وظروفها الخاصة، التي يجب أن يُنظر إليها في محيطها العام، ووفق منهج الاسترداد التاريخي لفهم الوقائع على حقيقتها، كما أشرنا إلى ذلك مرارًا.

وقال معاذ بن جبل للروم قبل معركة فِحْل: "وإن أول ما أدعوكم إلى الله، أن تؤمنوا بالله وحده وبمحمد ﷺ، وأن تُصلُّوا صلاتنا، وتستقبلوا قبلتنا، وأن تستنوا بسنة نبينا ﷺ، وتكسروا الصليب، وتجتنبوا شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، ثم أنتم منَّا ونحن منكم، وأنتم إخواننا في ديننا، لكم ما لنا

(١) المصدر السابق، ٣/ ٥١٧-٥١٨.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٥٢٠.

وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية إلينا في كل عام وأنتم صاغرون ونكف عنكم، وإن أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين"(١).

ونشير هنا إلى لفتة يسيرة - وإن كان شرحها يطول - وهي عن خيار (الجزية) الذي يعرضه المسلمون على غيرهم، وهذا ما لم تعرفه البشرية من قبل، ففيه إعطاء فسحة واسعة لمن يرفض الإسلام بأن يتجنب القتال بدفع جزية يسيرة تُدفع ومعها الحماية لتلك الشعوب(٢)،

(١) الأزي، فتوح الشام، ص١٠٣، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٨٣.

(٢) أما قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله" (البخاري، الصحيح، ١/ ١٤ ح ٢٥)، فتكلم العلماء في معناه وبيّنوا المراد منه، فأوضحوا أن المقصود ليس كل النَّاس وإنما المحاربين فقط الذين أذن الله بقتالهم (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩/ ٢٠)، وأن المقصود كذلك: "أنِّي لم أُؤمر بالقتال إلا إلى هذه الغاية، وليس المراد: أنِّي أُمرتُ أن أُقاتل كُلَّ أحد إلى هذه الغاية" (ابن تيمية، قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، تحقيق: عبدالعزيز آل حمد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م، ص٩٥)، ونحو هذا الكلام كرره في بعض كتبه الأخرى، أو المقصود المشركين من غير أهل الكتاب، أو أنه تعبير عن إعلاء كلمة الله وإذعان المخَالفين (ابن حجر، فتح الباري، ١/ ٧٧)، أو إني أمرت أن أقبل منهم ظاهر الإسلام وأَكِلَ بواطنهم إلى الله (ابن تيمية، الصارم المسلول، ٣/ ٦٧٨)، وثمة أقوال أخرى قديمة وحديثة بسطها يطول، ومؤداها أن الحديث لا يُفهم على إطلاقه، وأن تطبيقات الرسول ﷺ أظهرت أنه كان يقبل التعايش مع غير المسلمين، إما بالتعاقد والتعاهد، أو بدفع الجزية، ونحو ذلك، دون إكراه أحد على الإسلام، وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ ، قال ابن تيمية: "الكفار إنما يُقاتلون بشرط الحِرَاب، كما ذهب إليه جمهور العلماء، وكما دل عليه الكتاب والسُّنة" (النبوات، تحقيق: عبدالعزيز الطويان، الرياض، أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م، ١/ ٥٧٠)، وقال ابن القيم: "ولأن القَتْلَ إنَّما وجب في مُقابلة الحِرَاب لا في مُقابلة الكفر؛ ولذلك لا يُقتَل النِّساء والصِّبيان، ولا الزَّمنى والعُميان، ولا الرُّهبان الذين لا يُقاتِلون، بل نُقاتِل من حَارَبَنَا، وهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في أهل الأرض، كان يُقاتِل من حَارَبَهُ إلى أن يدخل في دينه، أو يُهادِنَه، أو يدخل تحت قَهره بالجزية" (ابن القيم، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذِّمة، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، الدمام، رمادي للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م، ١/ ١١٠، ونحوه في هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق: محمد الحاج، جدة، دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٣٧)، وأقوال العلماء في هذا كثيرة.

وبالمفهوم المعاصر الانضمام لتابعية الدولة مع أخذ الحقوق كاملة، نظير مبلغ مالي يسير، وهذا في غاية السَّماحة، بأن يترك المسلمون ثروات البلاد كلها بأيدي السُّكان، وأن يجعلوهم يشتغلون في مصالحهم، ولا تتم مُباغتتهم ويُنْذَرُون قبل أي قتال، ويُتْرَكُون ثلاثة أيام لا يُبْدَؤون بقتال؛ ليُرَاجِعُوا أنفسهم لعلهم يُغلِّبون جانب السِّلم والأمان، فأين من يتهمون المسلمين بأن قصدهم القتل والتدمير؟، وكيف يقتنع عاقل بتفسيراتهم لحركة الجهاد بأنّها لمآرب دنيوية؟، بل يوجد نوعٌ من المعاهدات التي يُبرمها الفاتحون تقضي بأنّ أهل البلد لو اشتركوا مع المسلمين في قتال ضد الأعداء فإنّ الجزية تسقط عنهم تلك السنة التي اشتركوا فيها بالقتال[١].

وفي كل مرة يحاور فيها الفاتحون زعماء الفُرس أو الرُّوم يعتقد أولئك أنّ المسلمين إنما خرجوا لطلب المغانم الدنيوية - كما سبق وكما سيأتي - ولكن رَدَّ الدُّعاة يكون واضحًا وصارمًا في هذه المسألة، وهو أنّ هدفهم فوق جميع تصورات من أُثْقِلوا بالماديات، كحال مَنْ فَسَّر حركة الفتح بالدَّوافع الاقتصادية والمادية، ومن الأخبار في هذا: أنّ الرُّوم قالوا لمعاذ بن جبل قبل معركة فِحْل: "نُعْطيكم البلقاء وما وَالىَ أرضكم من سواد الأردن، وتنحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ... وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم، ونحن معكم نُعينكم عليهم، حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم"، فالرُّوم يُطْمِعُون الفاتحين من جهتين، ولكن جاءهم الرَّد البين القاطع لكل وسواس وسوء نية، قال معاذ: "هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا، كُلُّهُ في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لن نظهر عليه، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وصفت لكم ما فعلنا!"[٢].

وعاد الرُّوم مرة أخرى بعرضٍ مادي أسخى من الأول، فجاء رسولهم إلى القائد أبي عبيدة، وقال له: "نحن نعطيكم دينارين وثوبًا، ونعطيك أنت ألف دينار، ونُعطي الأمير الذي فوقك ألفي دينار، وتنصرفون عنَّا، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما وَالى أرضكم من سواد الأردن، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا"، فأوضح أمين هذه الأمة أبو عبيدة للرُّومي هدف الرِّسالة المحمدية، وبيّن له مرادهم من دخولهم الشّام، فقال: "وأمرنا ﷺ فقال: إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل، فمن آمن وصدّق فهو أخوكم في دينكم، له ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يَدٍ وهم صاغرون، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقاتلوهم"[٣].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦.

(٢) الأزي، فتوح الشام، ص١٠٦-١٠٧، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٨٣.

(٣) الأزي، فتوح الشام، ص١٠٨-١٠٩، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٨٥-١٨٦.

ورجع الرُّوم بعرضهم الماديّ قبل معركة اليرموك، فقد قال قائدهم باهان لخالد بن الوليد: "قد علمتُ أنَّ الذي أخرجكم من بلادكم غلاء السِّعر وضيق الأمر بكم، وإنِّي قد رأيتُ أن أُعطي كل رجل منكم عشرة دنانير، وراحلة تحمل حملها من الطعام والكسوة والأدم، فيرجعون بها إلى بلادكم، وتُعَيّشُون بها أهاليكم سَنَتَكم هذه، فإذا كان قَابِلُ بعثنا إليكم بمثله"، فرد عليه خالد ردًا صارمًا أفجعهم[١]؛ لأنهم إنما قصدوا الاستهتار بالمسلمين.

ولا يسأم الفاتحون من تكرار إيضاح هدفهم وإن تعنت أعداؤهم، فقبل معركة القادسية تكلم رستم مع حذيفة بن محصن فقال له باحتقار: ما جاء بكم؟ فردّ عليه بكل هدوء: "إنَّ الله عز وجل مَنَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين، ثم أمَرنا بدُعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجِزَاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة"[٢].

ويُصرُّ القائد الفارسي رستم على تكرار عرضه المادي على المسلمين بشرط أن يرجعوا من حيث أتوا، مُقنعًا نفسه بأنّ مآربهم دنيوية، وإن كانت الرؤية قد اتضحت له، فمِمّا قال في الحوار الذي جرى بينه وبين المغيرة بن شعبة بعد أن حَمَّد قومه وعظّم أمرهم وطوّله، قال: " وقد علمتُ أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمرُ لأميركم بكُسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوِقر[٣] تمْرٍ وبثوبين، وتنصرفون عنَّا، فإني لست أشتهي أن أقتُلكم ولا آسركم"[٤].

فرستم يتوقع أنّ سبب مجيء المسلمين إنّما هو المادة، وذلك كمن يفسر الجهاد تفسيرًا اقتصاديًا، فهل أقرّه المغيرة على اعتقاده هذا؟، وبماذا أجابه؟. تكلم المغيرة بكلام فنّد فيه رؤية رستم للتاريخ وردَّ فيه على اعتقاداته الخاطئة عن المسلمين، ومما قاله له فيما نحن بصدده: "وأما الذي ذكرتَ فينا من سُوء الحال، وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفُه، ولسنا نُنْكره، والله ابتلانا بذلك، وصيَّرنا إليه، والدُّنيا دُوَل ... ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به"[٥]، "فنحن ندعوك إلى أن

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ١٤٧، وذكر الأزدي قصة أطول من هذه (فتوح الشام، ص١٧٣، ١٧٧-١٨٤)، ومثله ابن أعثم، الفتوح، ١/ ٢٣٦-٢٤٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٢١.

(٣) الوِقْر: الحِمْل، وأكثر ما يُستعمل في حِمْل البَغْل والحِمار (ابن الأثير، النهاية، ٥/ ٢١٣ "وقر").

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٢٢-٥٢٣، ونحوه عند أبي حنيفة الدينوري، أحمد بن داواد، الأخبار الطوال، تحقيق: عبدالمنعم عامر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٠ه، ص١٢٠-١٢١.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٢٣، ونحوه عند أبي حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٢١.

تؤمن بالله ورسوله، وتدخل في ديننا، فإن فعلتَ كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلاّ من احببتَ، وعليك الزكاة والخُمس، وإن أبيتَ ذلك فالجزية، وإن أبيتَ ذلك قاتلناك حتى يحكم الله بيننا وبينك"[(١)]، "والإسلام أحبّ إلينا"[(٢)]، وفي رواية مُقاربة أن جميع المحاورة السابقة جرت بين المغيرة بن شعبة ويزدجرد ملك الفُرس[(٣)].

ورد المغيرة في غاية الوضوح للأهداف، فقد حاول ثني الفرس عن القتال شفقة عليهم ورأفة بحالهم، وليس ضعفًا أو جُبنًا، فمآل الأمور فيما بعد أبان عن شجاعة المجاهدين وبسالتهم، فكيف بمن يثق بربه أولاً ثم بإمكاناته ومع ذلك يحاور بأدب وعِلْم وبالحُسنى لعل خصمه يدع عناده وعجبه بنفسه وكبرياءه ويرضى بالسِّلم بدل القتال.

ومع تعنّت الفرس إلا أن المسلمين أصرّوا على دعوة الفرس للإسلام وبيان حقيقة هدفهم، فقد أرسل سعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية بعد الرُّسل الثلاثة وفدًا إلى رستم في اليوم الرابع فقالوا له: "إنّ أميرَنا يقول لك: إنّ الجوار يحفظ الوُلاة، وإنّي أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافيةُ أن تقبل ما دعاك الله إليه ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعْض، إلاّ أن دارَكُم لكم، وأمْرَكُم فيكم، وما أصبتم ممَّا وراءكم كان زيادة لكم دوننا، وكنَّا لكم عونًا على أحد إن أرادكم أو قوِي عليكم. واتق الله يا رستم ولا يكونَنَّ هلاكُ قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغْبَط به إلا أن تدخل فيه وتطرُد به الشيطان عنك"[(٤)].

وقالوا له: "أتيناكم بأمر ربنا، نجاهد في سبيله، ونَنفُذ لأمره، وننتجز موعودَه، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلّفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيَكم القتال أو تفتدوا بالجِزَى، فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضَكم وأبناءكم وأموالكم، فاقبلوا نصيحتنا، فوالله لإسلامُكمْ أحب إلينا من غنائمكم"[(٥)].

ويلاحظ أنّ الوفد يُرغّبونه بالماديات ويتخلون عنها ولا يطلبون شيئًا لأنفسهم ودولتهم، وهو شبيه بالتأليف على الإسلام، بل ويُقسمون أنّ إسلام الفُرس أحبّ إلى المسلمين من جميع كنوز فارس!، كما أنّهم لا يُهملون تحميله مسؤولية ضرر قومه الدنيوي والأخروي فهو ومن وراءه من الكُبراء عائق لهداية الناس وسَدٌّ لتبليغ دين الله، وهذا شبيه بكتابة النبي ﷺ لهرقل: "فإن توليتَ فإنّ

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٧٤، ونحوه عند أبي حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٢١.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٢٥.
(٣) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٩٩.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٢٥-٥٢٦.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٥٢٨.

عليكَ إثم الأريسيين"[١]، وهم طوائف من شعب هرقل اختُلف من هم بالتحديد.

وتكلم عمرو بن العاص مع راهبي بابليون في مصر، ومما قال لهما: "فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى الإِسْلام، فَمَنْ أَجَابَنَا إِلَيْهِ فَمِثْلُنَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبْنَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، وَبَذَلْنَا لَهُ الْمَنْعَةَ ... وَمِمَّا عَهِدَ إِلَيْنَا أَمِيرُنَا: اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِيِّينَ خَيْرًا؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خَيْرًا؛ لأَنَّ لَهُمْ رَحِمًا وَذِمَّةً"[٢].

وفي خبر آخر أنّ عمرو بن العاص أرسل إلى مقوقس مصر وفدًا لمفاوضته، وجعل عليهم عبادة بن الصامت، فاستنكر المقوقس أن يكون على هذا الوفد رجل أسود، فمما قال له عبادة: "إنَّا إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوّنا ممن حارب الله لرغبة دُنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحلَّ ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما؛ لأن غاية أحدنا من الدُّنيا أَكْلَة يسدُّ بها جَوعته لليله ونهاره، وشَمْلة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قِنْطار من ذهب أنفقه في طاعة الله، واقتصر على هذا الذي بيده، ويبلغه ما كان في الدُّنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرَّخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون هِمة أحدنا من الدُّنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه"، ثم إن المقوقس عرض مقابلاً ماديًا لكل جندي ولخليفة المسلمين، على أن يرجع الفاتحون إلى بلادهم، وخوَّفهم بقدوم جيش عظيم من الرُّوم لمساعدتهم على حرب المسلمين، فرد عليه عبادة بكلام رصين، وبمثل المفاهيم السابقة، من الطمع بما عند الله، ولا همة لهم بالدُّنيا، وعرض عليه الخيارات الثلاثة المشهورة[٣].

ومما قال رجل من المسلمين لملك صقلية وهو يدعوه إلى الإسلام في عهد عثمان بن عفان: "قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام، وتأمنوا على دياركم وأموالكم، ونولّي عليكم رجلاً منكم، تقيمون الصلوات الخمس ... فإن أبيتم الدخول في ديننا فاقبلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا، وقَرُّوا دياركم آمنين"[٤].

وفي القصة التالية نلحظ وضوح الهدف للجنود وليس للقيادة والقادة فقط، فقد طلب رستم وهو في مسيره إلى القادسية من قائد مقدمته أن يصيب له رجلاً من المسلمين، فخرج بنفسه مع مائة فارس، فوجدوا رجلاً فاختطفوه، وأحس بهم المسلمون فركبوا في أثرهم، لكنهم أفلتوا إلا ما أصابوا من

(١) البخاري، الصحيح، ١/ ٩ (ح ٧).
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٠٧.
(٣) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٦٦-٦٨.
(٤) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١٤١.

أُخرياتهم، وأُرسل الرجل إلى رستم، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟، قال: جئنا نطلب موعود الله. قال: وما هو؟ قال: أرضكم، وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تُسلموا.

قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟، قال: في موعود الله أنَّ من قُتل منّا قبل ذلك أدخله الجنة، وأنجز لمن بقي منَّا ما قلتُ لك، فنحن على يقين. قال: قد وضِعنا إذًا في أيديكم؟ قال: ويحك يا رستم! إنّ أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنَّك ما ترى حولك، فإنّك لستَ تُحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر!، فاستشاط رستم غضبًا فأمر به فضربت عنقه[١].

فالهدف واضح جدًا للأفراد وليس حكرًا على القيادة فقط، وكم من القيادات التي تزج بجنودها وعساكرها في ميادين القتال دون أن يعلموا هدف الحرب وسببها، وفي بعض الأحيان يُدَلَّس عليهم بأسباب وهمية وكاذبة.

أما تصرفات الأفراد من الفاتحين والتي يتجلّى منها عمق فهمهم لِما خرجوا من أجله فهي كثيرة جدًا، ومكانها في غير هذا البحث، وقد كررنا القول بأنّ المقصد هنا إظهار سياسة الدولة العليا بهذا الجانب.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٠٧- ٥٠٨.

المبحث الرابع
تغليب السِّلم والأمان على القتال

لعل ما مضى من الأمثلة السابقة يكفي للتدليل على هذا المعنى، وإنَّ تتبع سير عمليات الفتح يؤكد حرص المسلمين على التأني وعدم البداءة بأي قتال، وقد ورد أن الرُّسل بقيت تجري شهرًا كاملاً بين المسلمين والفُرس قبل معركة القادسية[٢]، وكان أصحاب النُّفوذ والمصالح هم الذين يحرِّضون ويحشدون ويتحرشون بالمسلمين في الأغلب، وهذا من الموضوعات المميزة التي تستحق أن تُفرد بالدِّراسة والبحث الدَّقيق، ومواقف عمر بن الخطاب مشهورة في عدم سماحه بالتوغّل في بلاد فارس إلا بعد أن أجلبوا على المسلمين[٣]، وتكراره لقوله: "لوددتُ أنه كان بيننا وبينهم بحر من نار"[٤]، "وددتُ أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار، لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم"[٥]، وقال لأبي موسى الأشعري حينما استأذنه لغزو خراسان: "ذر عنك خراسان فلا حاجة لنا بها، يا ابن قيس! مالنا ولخراسان وما لخراسان ولنا، ولوددتُ أنَّ بيننا وبين خراسان جبالًا من حديد وبحارًا وألف سدّ، كل سد مثل سد يأجوج ومأجوج"[٦]، ونهيه عن الغزو

(٢) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٢٠.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٥٠، ٨٩، ١٢٢، ١٣٨، ١٦٧.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ١٦٨.

(٥) المصدر السابق، ٤/ ٧٩.

(٦) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ٧٧.

فيما وراء البحار[١]، وكتب لعمرو بن العاص: "لا تنزل بالمسلمين منزلا يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر"[٢]، وقوله: "الخير والسَّلامة أحبُّ إليَّ من مُصاب مائة بقتل ألفٍ"[٣]، أي أنّ سلامة مائة من المسلمين أحبّ إليه من قتل ألف من عدوهم بمصاب هؤلاء المائة. ولما ترك ملك الرُّوم مقاتلة المسلمين، وأحب المسالمة، كاتبه عمر وتبادل معه الهدايا، حتى أنّ أم كلثوم زوجة عمر أرسلت هدية لامرأة ملك الرُّوم[٤]، وعلى الرَّغم من ترغيب عمرو بن العاص للفاروق بغزو الشمال الأفريقي بعد فتحه لطرابلس، إلا أنّه رفض[٥]، وصالح المسلمون أهل النُّوبة في عهد الفاروق على أن لا يقاتلوا بعضهم بعضًا[٦].

ونجد في الخبر التالي ما يُثبتُ هذه النظرية، فلما كان عمر قد نهى جيشه عن الانسياح في بلاد فارس والتوقف عن عمليات الفتح، جاءه وفدٌ من المشرق بزعامة الأحنف بن قيس، فاستشارهم عمر بشأن الأوضاع هناك، فقال الأحنف: "يا أمير المؤمنين، أُخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا، وإنَّ ملك فارس حَيٌّ بين أظهرهم، وإنَّهم لا يزالون يُسَاجِلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخْرِج أحدهما صاحبه، وقد رأيتَ أنَّا لم نأخذ شيئًا بَعْدَ شيء إلا بانبعاثهم، وأنَّ ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس، ونخرجه من مملكته وعز أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشًا. فقال: صدقتني والله، وشرحت لي الأمر عن حقه"[٧]، فكلام الأحنف في غاية الوضوح، بأن عمليات الفاتحين كانت ردة فعل لتحركات الفُرس ضد المسلمين، كما أنه يُقدِّم خطة استراتيجية مهمة في أنَّ تأمين جانب المسلمين وأراضيهم لن يتم إلا بعد القضاء على ملكهم، وهذا لا يتحقق إلا بملاحقته في تلك البلاد.

ونذكر أيضًا مثلاً عجيبًا يجمع بين مبدأين في الدولة الإسلامية، هما: عدم مهاجمة الآخرين ما لم يعتدوا على المسلمين، وتثبّت الحكومة الإسلامية من أن أي تصرف ضدها إنما يُمثل توجه القيادة السياسية للمعتدين، فلا تقوم الدولة بأية ردة فعل إلا بعد التبيّن، فقد أغار قوم من الأحباش على سواحل المسلمين وأصابوا منهم سبيًا وأموالاً كثيرة، فاغتم عثمان بن عفان غمًا شديدًا واستشار الصحابة في غزو الحبشة، فكان رأيهم أن لا يعجل

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٥٩.
(٢) ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٢٦٣.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٥١٢.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٢٥٩-٢٦٠.
(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٧٠، وابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص١٧٣، والبلاذري، فتوح البلدان، ص٣١٦.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣٢.
(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٨٩.

عليهم، وأن يُرسل لهم وفدًا ليتأكد من توجهات ملك الحبشة، فبعث كتابًا مع محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين، فأنكر ملك الحبشة ذلك أشد الإنكار، وقال: ما لي بذلك من علم، ثم أرسل يبحث عن سبي المسلمين وردّهم مع الوفد[1]، ولا يُعلم أن الدولة الإسلامية في عصر الراشدين تصادمت مع الأحباش[2].

وليس المقصود هنا الخروج بحكم واحد عن أسباب الجهاد في عصر الراشدين، والذي يحتدم فيه النقاش منذ قرابة قرن من الزمان، ولكن مرادنا ضرورة دقّة توصيف ما جرى في العصر النبوي والراشدي للخروج بنتائج قريبة من حقيقتها التاريخية.

وعند تأملنا للمعاهدات مع البلاد المفتوحة، وجدنا أنّ الفاتحين وسَّعوا دائرة الخيارات تغليبًا للسِّلم، ولم يشددوا على بنودٍ محدّدة لا يخرجون

(١) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١١٦-١١٧.

(٢) سوى ما ورد بخبر موجز، ففي رواية: أن الفاروق بعث علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة في البحر؛ لأنهم أصابوا من المسلمين، ولكن ذلك الجيش أصيب في البحر (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١١٢)، وفي رواية أخرى: أن عبدالله بن سعد بن أبي السرح قام بغزو الحبشة في سنة ٣٣ه (خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفري الشيباني، تاريخ خليفة، تحقيق: أكرم العمري، الرياض، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦٨)، ولكن الخبر لا يذكر أي تفاصيل عن المقصود بالحبشة، هل هي المملكة المشهورة؟ وهذا بعيد؛ لأن هذا يحتاج إلى إعداد كبير من السُّفن والمراكب والرِّجال، وهو ما لا تهمله كتب التاريخ، ولو حدث ذلك لا ستمر التقدم في أراضيهم، أم المقصود جنس الأحباش؟ وهم ينتشرون على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر، كما أنهم يُطلقون على النّوبة وجنوبها أحباش، فقد يكون ابن أبي السرح تصادم مع ما يُعرف حاليًا بالسودان، وهو الأظهر، وقد يكون ذلك ردًا على بعض غارت القراصنة

==

==

واللصوص، فقد ورد أن عثمان شحن السواحل بالرجال والسلاح، بعد ما حصل من بعض الأحباش من اعتداءات على سواحل المسلمين (ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١١٧)، ثم وجدتُ ما يعزز القول بأن المقصود بلاد النوبة نفسها، وبالتحديد (دُمْقُلة)، والتي تُعرف حاليًا (دنقلة) بالسودان، فقد ذكرتْ بعض المصادر هذه الغزوة باسم غزوة دُمْقُلة أو غزوة الأساود، ولكنها تذكرها في سنة ٣١ه، والتفاصيل القليلة الواردة عند خليفة هي نفسها التي وردت عن تلك الغزوة (ينظر مثلاً ما جاء عند: ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٨، والبلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣١ وما بعدها، وهو أفضل من تحدث عنها، وأبو زرعة الدمشقي، عبدالرحمن بن عمرو، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق: شكر الله القوجاني، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٨٢م، ص١٨٥-١٨٦، وابن منده، عبدالرحمن بن محمد بن إسحاق، المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الناس للمعرفة، تحقيق: عامر التميمي، البحرين، وزراة العدل والشؤون الدينية البحرينية، د. ت، ٣/ ٤).

عنها، فنرى أنواعًا من المعاهدات، منها ما يكون صُلحًا تُضم به البلاد بالكامل إلى الدولة الإسلامية، ومنها ما تلتزم به البلاد دفع جزية مقابل السَّلام، ومنها ما تكون البلاد تحت نفوذ المسلمين ويُشاركهم أعداؤهم في تقاسم الجزية، ومنها معاهدات سلام دون أي التزامات، ومرّ معنا بعض الأمثلة لهذه النماذج.

ومما يزيد من تجلية هذه المسألة بعض القصص العجيبة، والتي تبهر العقول وتأخذ بالألباب، ومن ذلك ما مرَّ معنا في فتح مدينة دمشق، فقد دخلها بعض الجيش عنوة، فخشي أهلها أن تسقط كلها ففتوحوا للقادة الآخرين بالصُّلح، ومع ذلك جعلها الفاتحون كلها صُلحًا، ومثلها مدينة عين شمس، وحصن بابليون، والإسكندرية، وغيرها.

ولما وصل سعد بن أبي وقاص إلى بَهُرَسِير، وهي إحدى المدائن السَّبع التي سميت بها المدائن عاصمة الفُرس[١]، راسل الدَّهاقين[٢] فدعاهم إلى الإسلام والرجوع، أو الجَزاء ولهم الذِّمّة والمُنْعَة، فاختاروا الجزاء والمنعة فلم يبقَ في غربي دجلة إلى أرض العرب سَواديٌّ[٣] إلا آمَنَ واغتبط بملك الإسلام[٤]. هذا على الرغم من أنّ أغلب هؤلاء الدَّهاقين كانوا قد نقضوا عهدهم مع المسلمين وأعانوا الفرس، لكن مصلحة المسلمين بهدايتهم لا بقتلهم.

وشبيه بهذا لما دخل المسلمون المدائن كان بعض الفُرس قد اعتصموا بالقصر الأبيض[٥] فحاصرهم سعد، وطلب من سلمان الفارسي، وكان داعية الجيش، أن يتقدّم إليهم ويدعوهم، فدعاهم ثلاثة أيام، يقول لهم: "إني منكم في الأصل وأنا أرقُّ لكم، ولكم فيّ ثلاث أدعوكم إليها ما يُصلحكم: أن تُسلموا فإخواننا لكم مالنا وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية، وإلا نابذناكم على سواء إنّ الله لا يحب الخائنين"، فلما كان اليوم الثالث قبلوا أن ينزلوا على الجزية[٦]، وفي رواية مقاربة أنه كان يكلمهم

(١) ياقوت، معجم البلدن، ١/ ٥١٥.

(٢) الدِّهْقَان: بالضم والكسر، والجمع دَهاقِنة ودهاقين، هو زعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ١/ ١١٩٨)، وعملهم إداري، ووظيفتهم الأصلية استلام الضرائب، وينقسمون إلى خمسة أقسام (كريستنسن، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة: يحيى الخشاب، ومراجعة عبدالوهاب عزام، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت، ص٩٩-١٠٠).

(٣) نسبة إلى أرض السواد، وهو العراق، سُمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل (ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٢٧٢).

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٥.

(٥) القصر الأبيض: هو قصر كسرى الذي يسكنه، وهو الإيوان (البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، المسالك والممالك، تحقيق: آدريان وان ليون وأندرو فري، تونس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م، ١/ ٤٣٠).

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٤.

بالفارسية[١]. هذا على الرَّغم من سهولة اقتحام القصر أو حصارهم حتى يصيبهم الجهد فيستسلموا.

وبعد انتصار الفاتحين في معركة اليرموك أقبل أهل مدن الشام الذين لم يُصالحوا من قبل، فطلبوا الصُّلح من أبي عبيدة، فوافق مع أن كثيرًا منهم كانوا عونًا للرُّوم، والأعجب أنّهم اشترطوا أنّ من كان عندهم من الرُّوم الذين جاءوا لقتال المسلمين أنّهم آمنون يخرجون بمتاعهم وأموالهم وأهلهم إلى الروم، ولا يتعرض لهم في شيء من ذلك، فأعطاهم ذلك أبو عبيدة[٢].

وفتح المسلمون مدينة السُّوس عنوة، فلما دخلوها ألقى المجوس بأيديهم وتنادوا: الصلح الصلح، وأمسكوا بأيديهم، فأجابهم المسلمون إلى ذلك على الرَّغم من أنّهم قد أغاظوا المسلمين من قبل وقتلوا منهم[٣]، ولكن المسلمين خرجوا هداة ولم يخرجوا غزاة بهدف القتل والانتقام، فهل عرف التاريخ من قبلُ ومن بعدُ عند غير المسلمين مثل هذا التسامح والتغاضي والكفّ عن الانتقام.

وهذه قصة من نوادر الأخبار، إذْ إنّ ملك الفرس يزدجرد أرسل أحد قادته، ويدعى سياه الأسوَاريُّ في نخبة من شجعانهم، وهم الأساورة؛ لعرقلة تقدم المسلمين في فارس، فلما رأى القائد ظهور الإسلام وعزّ أهله، وأن السُّوس قد فُتحت، أرسل إلى أبي موسى الأشعري يخبره برغبتهم في الإسلام، وشرط شروطًا، ومنها: أن يمنعهم المسلمون لو قاتلهم أحد من العرب، وأن ينزلوا حيث شاءوا، ويُلحقوا في العطاء بأهل الشَّرف[٤]، فقال أبو موسى: "بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا"، فرفض القائد الفارسي، فكتب أبو موسى لعمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر أن أعطهم جميع ما سألوا، وشهدوا مع أبي موسى حصار تُسْتَر فلم يغنوا شيئًا، فلما عاتبهم أبو موسى أخبر قائدهم أنهم إنما دخلوا في الإسلام تعوذًا[٥]، ومع ذلك وفّى المسلمون لهم بالشروط، على الرَّغم من غلبة الفاتحين، ومقدرتهم عليهم، ولكن كان النظر للهدف والنتيجة، وكذا كان، إذ نزل أولئك البصرة، فكانوا من أهلها واندمجوا مع العرب.

وبعد انتصار المسلمين في أصبهان سار قائدهم عبدالله بن عبدالله بن عِتبان من رستاق الشيخ إلى

(١) الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة، الجامع الكبير أو سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، ودار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ٣/ ٢٠٧ (ح١٥٤٨).

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٤٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ٤/ ٩٣، وفي تفاصيل القصة نظر، ولكن الذي يهمنا دخول المسلمين لها عنوة.

(٤) هو أفضل العطاء؛ لأن العطاء مراتب حسب البلاء.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٩٠-٩١، والبلاذري، فتوح البلدان، ص٥١٩-٥٢٠.

(جَيّ) وهي إحدى قسمي أصبهان، وكان الملك فيها (الفاذوسفان)، فحاصرهم ابن عِتبان فخرجوا إليه مرارًا وتزاحفوا وتقاتلوا، ثم قال الفاذوسفان لابن عِتبان: لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابَك، ولكن ابرُز لي فإن قتلتُك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي، وإن كان أصحابي لا يقع لهم نُشابة[1]. فبرز له ابن عِتبان وقال: إما تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك؟، فقال: أَحمِلُ عليك. فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قَرَبُوس سَرْجِه فكسره وقطع اللّبَب والحِزام وزال اللِّبْد[2] والسَّرج، وعبدالله على الفرس فوقع قائمًا، ثم استوي عل الفرس عُرْيًا.

ولا شك أنّ هذا من ابن عِتبان قمة في التضحية والشجاعة واللياقة.

ثم طلب عبدالله من الفارسي أن يأتي دوره، لكن الفارسي أدرك مصيره فقال: "ما أحب أن أُقاتلك فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله، وعلى أن تُجري مَن أخذتم أرضه عنوةً مجراهم ويتراجعون، ومَن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه. قال عبدالله: لكم ذلك"[3].

وهذا مَثَلٌ من أمثلة لا تُحصى توضح أن المسلمين خرجوا هُداة ولم يخرجوا جُباة، فابن عِتبان تنازل عن حقه في تسديد طعنة للفارسي على الرغم من أنه كاد أن يُقتل، فلم ينتقم أو يحقد أو يرفض فتقع ملحمة لأجل نزوة شخصية.

وحاصر عياض بن غَنْم مدينة الرَّقة، فتحصن أهلها ورموا المسلمين بالحجارة والنَّشاب، فأعد عياض خطة وأَسَرَ في جوف الليل عددًا كبيرًا من حُراس أحد الأبواب، فلما كان الصباح أيقن البطارقة بالهزيمة، فطلبوا من عياض أن يحادثوه، فلما قابلوه عرض عليهم الإسلام أو الجزية، فاختاروا الجزية، ودخلت البلاد صُلحًا على الرَّغم من قُرب سقوطها عنوة بأيدي المسلمين[4].

(١) النُّشّابة: جمع نُشَّاب، وهي السِّهام (الجوهري، الصحاح ١/ ٢٢٤ "نشب").

(٢) القَرَبُوس: الشّاخصُ في مُقدّم السَّرْج، وله قربوسان مقدم ومؤخر. والحزام: السَّير الذي يُشدُّ به السَّرج على ظهر الدّابة. واللِّبْدُ: الذي يُشدُّ تحت دفتي السَّرج (العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق: عزة حسن، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م، ص٣٤٣-٣٤٤)، واللَّبَبُ: ما يُشَدُّ على صدر الدَّابَّةِ، يمنع الرَّحْل والسَّرْج أن يستأخر (الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي سيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)، ٤/ ١٩٠ "لبب").

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٤٠، والبلاذري، فتوح البلدان، ص٤٣٧-٤٣٨.

(٤) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ٣٢٦-٣٢٧.

وحينما وصل عمرو بن العاص إلى بابليون في مصر وجدهم قد استعدوا لقتاله، وأنشبوا القتال، فأرسل إليهم عمرو يقول: "لا تُعَجِّلونا؛ لنُعْذِر إليكم، وترون رأيكم بعدُ"، فخرج لمفاوضتهم وأمهلهم أربعة أيام[١].

وفي كتب الصُّلح التي يكتبها قادة المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة أمثلة لا تُحصى في حرص المسلمين على تغليب السِّلم والأمان إذا التزم السُّكان بالمعاهدات، ومن عجيبها ما صالح عليه نعيم بن مسعود أحد أمراء الفُرس بعد أن فتح الرَّي، فقد أرسل له (مردنشاه) حاكم دُنْبَاوَنْد يطلب الصُّلح من غير أن يسأله النَّصر والمنعة، فقبل نُعيم وكتب بينهما كتاب أمان، ومما جاء فيه: "لا يُغار عليك، ولا يُدخل عليك إلا بإذن، ما أقمت على ذلك حتى تغير"[٢]، ومثله الصُّلح مع طبرستان[٣]، وهذا في غاية العجب، فعلى الرَّغم من تمكّن المسلمين فتح تلك المدينة، وخاصة بعد فتح مدينة الرَّي الكبيرة فقد آثروا السِّلم على القتال، بل وجعلوا الدُّخول إلى مدينة ذلك الحاكم لا تكون إلا بإذنه، وهو نوع من أنواع الاتفاقيات التي يعقدها الفاتحون مع زعماء البلاد في ذلك الوقت، يقضي بأن يكون للمدينة استقلالٌ ولكن بشروط خاصة، وكل هذا تغليبًا للسِّلم وتجنبًا للقتال، فأين هذا من دول الاستعمار الحديثة التي تَدَّعي احترام الحقوق وهي تَنْهَب الأخضر واليابس، وتمارس جميع أنواع التنصت والتجسس والتدخل في شؤون الآخرين؟! وأين من يتهم المسلمين بأنّهم نشروا الإسلام بالسيف والقهر؟.

ومثال آخر أعجب من السَّابق، ففي كتاب الصُّلح الذي كتبه أبو عبيدة بن الجراح مع أهل بعلبك بالشام: "وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا، ولتُجارهم أن يُسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها"[٤]، ومعناه إعطاء حُرية التنقل لرعايا القوم المُحاربين لهم بأمان بمسافة حددها لهم، وأن يتنقل تجارهم حيث شاءوا بين المدن التي غلب عليها المسلمون، وإعطاء فرصة لمن أراد الجلاء دون أي عوائق!، فهل لهذه السَّماحة من نظير في تاريخ الدُّنيا كلها!.

ويبرز حضور هدف المسلمين في حفظ الأنفس وتغليب السِّلم في مواقف كثيرة على الرّغم من تفوقهم وتغلبهم، ومن هذه المواقف أنَّ أهل الدَّيلم وأهل الرَّي وأهل أذربيجان قد تجمعوا لقتال المسلمين، فالتقى بهم نعيم بن مسعود بجيشه وهزمهم في (واج روذ) سنة اثنتين وعشرين، وكانت معركة شديدة تُشَبَّه بنهاوند، وكان قائد

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٠٧.
(٢) المصدر السابق، ٤/ ١٥١.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ١٥٣.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٧٧.

جيش أذربيجان (إسْفَنْدياذ)، وهو أخ رستم قائد الفرس في معركة القادسية، فانهزم مع بعض جيشه[١]، ولما عزم الخليفة عمر بن الخطاب على فتح أذربيجان أرسل لها ثلاثة جيوش، فأمر بُكير بن عبدالله الليثي أن يخرج من حلوان إلى أذربيجان، وطلب من عتبة بن فرقد أن يخرج من الموصل إلى غرب أذربيجان، وأرسل إلى نعيم بن مقرن حين انتهى من فتح الرَّي أن يبعث سِماك بن خَرَشة الأنصاري مددًا لبكير، فلما طلع بكير بحيال (جَرْميذان) قابل القائد الفارسي (إسْفَنْدياذ) مهزومًا، فاقتتلوا وهزم الله جند العجم، وأخذ بكير (إسفندياذ) أسيرًا فقال لبُكير: "الصلح أحبُّ إليك أم الحرب؟، قال: بل الصلح. قال: فأمْسكني عندك، فإن أهل أذربيجان إن لم أُصالح عليهم أو أجيء لم يقيموا لك وجَلَوْا إلى الجبال التي حولها من القَبْج[٢] والرُّوم ومَن كان على التحصّن تحصّن إلى يوم ما. فأمسكه عنده فأقام وهو في يده، وصارت البلاد إليه"، ثم قدم سِماك بن خرشة وقد افتتح ما في طريقه، وكذا وصل عتبة بن فرقد وقد استطاع أن يهزم أحد جيوش الفرس التي وقفت في طريقه، فلما وصلت الأخبار إلى بكير قال إسفنديا ذ: الآن تمّ الصلح. فصالحه بكير وطفئت الحرب، وعادت أذربيجان سِلْمًا[٣].

ونلاحظ شدة حرص المسلمين على المسالمة على الرَّغم من كثرة المواجهات والعصيان من أهل تلك البلدان، بل حتى قادة الفُرس أو الرُّوم وهم من أكبر أسباب الحشد ضد المسلمين، ومع ذلك يتم العفو عنهم تغليبًا للمسالمة وحفظًا لإراقة الدِّماء.

وحاصر جيش المسلمين مدينة كابل في خلافة عثمان بن عفان عامًا كاملاً، ولقي الفاتحون في ذلك عنتًا شديدًا، ثم تغلبوا ودخلوا المدينة وأسروا ملك كابل، فأمر عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي أن يُقتل، فنطق بالشهادتين فتُرك، وأكرمه عبدالرحمن[٤].

المبحث الخامس
الأهداف العليا فوق جميع الاعتبارات الشخصية

حينما نَطَّلِعُ على أخبار القيادة في عصر الراشدين نُدرك أنهم جعلوا الأهداف العُليا فوق كل الاعتبارات الذاتية والشخصية، وهذه بعض الأمثلة التي أهملتها الأجيال المسلمة وأصبحت تستشهد بها تراه في الشرق أو الغرب.

لما أخذ خالد بن الوليد نصف جيش العراق

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٤٨.

(٢) القبج: أو القبجاق، من القبائل التركية، ويسكنون ما بين بحر خوارزم والبحر الأسود، فهم يجاورون الروم (ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٣/ ٢٤، ٢٧، والقلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ٤/ ٤٧٢).

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٥٣-١٥٤.

(٤) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ٣٣٩، تحقيق شيري.

وذهب به إلى الشام بأمر الصِّديق أراد الفُرس استغلال قلّة المسلمين في العراق، وأدرك المثنى بن حارثة أنّ الفُرس سيلتفتون إليهم حالما تَصْلُح أوضاع بلاطهم، كما أنّه لا يستطيع أن يحتفظ بالمناطق المفتوحة بجيش صغير قوامه تسعة آلاف فقط، هذا فضلاً عن احتمال هجوم فارسي مرتقب؛ لذلك رأى أن يسير بنفسه إلى المدينة النبوية ليُطْلع الخليفة على مجريات الأمور وليقدم مقترحاته حيال الوضع الجديد.

ولكن المثنى لما وصل إلى المدينة كان أبو بكر في مرض الموت، ولم يَثْنِ ذلك الصِّديق عن السَّماع من المثنى، فأمر بأن يُحضر له عمر، فلما جاء أوصاه، وقال: "اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به!، إنِّي لأرجو أن أموتَ من يومي هذا - وذلك يوم الاثنين - فإن أنا مِتُّ فلا تُمسينّ حتى تَنْدُب النَّاس مع المثنى، وإن تأخرتُ إلى الليل فلا تُصْبحَنّ حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنَّكم مصيبة وإن عَظُمت عن أمر دينكم ووصية ربِّكم، وقد رأيتُني مُتوَفّى رسول الله ﷺ وما صنعتُ، ولم يُصَب الخلق بمثله، وبالله لو أنِّي أنِي عن أمر الله وأمر رسوله لخَذَلنَا ولعَاقَبَنَا فاضطرمت المدينة نارًا، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردُدْ أصحابَ خالد إلى العراق، فإنَّهم أهله وولاة أمره وحدّه، وأهل الضراوة منهم والجرأة عليهم"[1].

وومات أبو بكر الصديق مع الليل فدفنه عمر ليلاً، ولما فرغ نادى مناديه: "الصلاة جامعة"، وكان ذلك في آخر الليل، فلما اجتمع الناس دعاهم الخليفة الجديد إلى التطوّع للجهاد[2].

هكذا يموت الخليفة العظيم أفضل الأمة بعد نبيها، صاحب الأعمال الجليلة والمواقف النادرة، فيقوم الخليفة بعده يطلب من الناس التطوّع للجهاد، لم تُنكَّس أعلام، أو تدخل الدولة في حداد، أو تُعزف الموسيقى وتصدح الأغاني بتمجيد الخليفة القادم والنّوح على الخليفة السابق، نعم إنّها أمة لها هدف لا تعرف تقديس الأشخاص ولا تقف عند ذواتهم، وحكومة تعي المسؤولية وتدرك أنّها تؤدي عبادة وواجبًا دينيًا وليس متاعًا ومجدًا شخصيًا.

وفي القصة التالية نُدرك دِقَّة القيادة في التحقيق في كل ما يخدش الهدف الأسمى للجهاد ولو بالكلام، وإن كان من باب التَّنَدُّر، فقد بعث المثنى بن حارثة فُرات بن حَيَّان وعُتيبة بن النَّهاس إلى صفين، وأمرهما بالغَارة على أحياء العرب من تَغْلِب والنَّمِر، فأغاروا عليهم حتى رَموا بطائفة منهم في الماء، فناشدوهم فلم يُقْلِعُوا عنهم، وجعلوا ينادونهم: "الغَرَق الغَرَق"، وجعل عُتيبة وفرات يحضان الناس وينادونهم: "تَغْرِيقٌ بتحريق"، يُذكِّرونهم يومًا من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قومًا من بكر بن وائل في غَيْضة من الغياض، ثم انكفأوا راجعين إلى المثنى وقد غرّقوهم.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤١٣-٤١٤.

(٢) المصدر السابق، ٤١٤، ٤٤٤، ٤٤٧.

ووصلت أخبار هذا التغريق وما قاله عُتيبة وفرات إلى الخليفة عمر، فاستدعاهما إلى المدينة وحقّق معهما في مقولتهما، فأخبراه أنّهما قالا ذلك على وجه أنه مَثلٌ، وأنّهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ثأثر الجاهلية، فاستحلفهما، فحلفا أنّهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام، فصدقهما وردّهما حتى قدما على المثنى[١].

فالقيادة لم يكن الهدف السَّامي يغيب عنها وإن كانت في مرحلة صراع عنيف مع أعدائها، فالقتل في الحرب مرفوض إلا إذا كان لمصلحة الدعوة وإعزاز الدين، ولم تعرف فتوح المسلمين إبادات جماعية أو قتلاً بدون سبب أو تشفيًا أو انتقامًا لأغراض شخصية، ولا حصانة للقادة قبل الجنود من أي عمل يُخالف أو يشوّه الهدف العظيم، فأين هذا ممّن يَدَّعون الجهاد وهم قد أفسدوا في البلاد وأبادوا العباد، بالذَّبح والتحريق والتغريق والتعذيب؛ لمسوغات طائفية أو حزبية أو مذهبية أو نفسية؟!.

المبحث السادس
الدَّعوة للسَّلام قبل القتال

مرّ من الأمثلة الكثير مما يؤكد أنّ الجهاد لم يكن لهدف القتل، بل إنّ من المقرر في أصول الإسلام "أنَّ دم الآدمي معصوم، لا يُقتل إلا بالحق، وليس القتل للكفر من الأمر الذي اتفقت عليه الشرائع ولا أوقات الشريعة الواحدة، كالقتل قَوَدًا، فإنّه مما لا تختلف فيه الشرائع ولا العقول"[٢].

وتأكيدًا على تطبيق قيمة تغليب السِّلم وتجنب القتال فإنّ القيادة تحض قادتها دائمًا على عدم مهاجمة الأعداء دون الإنذار والإعذار إليهم، وإيثار السِّلم والسلام على القتال، ومضى من الأمثلة ما يكفي، ولكن هذه إشارات سريعة كذلك فيما يتعلق بالدَّعوة إلى السَّلام قبل القتال، مع الأخذ بعين النَّظر أنّ العبارات التي تتسم بالشِّدة في بعض المكاتبات هي باعتبار حالة الحرب، وتفرضها ضرورات لا تخفى، ومن الأمثلة على البداءة بالدَّعوة قبل إنشاب أي قتال:

١- كَتَبَ خالد إلى هرمز وهو في الطريق إليه كتابًا مختصرًا يدعوه فيه إلى تجنب الحرب، قال: "أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذِّمة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"[٣].

٢- لما وصل خالد الحيرة خرج إليه أشرافهم فقال لهم: "أدعُوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين لكم مالهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية"[٤].

وكانت الحيرة أربعة حصون تحصّن أهلها

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٧٦.

(٢) ابن تيمية، الصارم المسلول، ٢/ ٢١٠.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص١٤٣، والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٤٤، ٣٤٥.

داخلها، ووصل باقي الجيش فقسّم خالد قواته لحصارها، وأمر خالد كلّ أمير أن يدعوا أهل الحصن الذي يحاصره إلى واحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وأن يمهلوهم يومًا، وأبى أهل الحيرة إلا القتال ولجّوا[١]، فلما انتهت المهلة أراد خالد أن يضغط نفسيًا على الذين في الدَّاخل؛ حتى لا تطول المقاومة ويكثر القتل، فأمر بشنّ الغارات على من هم خارج الحصون، فأدركوا ألا جدوى من المقاومة فنادوا المسلمين وقالوا: "يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث، فادعوا بنا وكُفّوا عنا حتى تبلغونا خالدًا"[٢].

٣- بعد أن أخضع خالد الحيرة كتب رسائل لأهل فارس جميعًا للدَّعوة والإنذار، فكتب كتابين أحدهما إلى الخاصة والآخر إلى العامة، أحدهما حِيريّ والآخر نَبَطي[٣]:

فكتب إلى ملوك الفُرس يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد، فالحمد لله الذي حَلَّ نظامكم، وَوَهَّن كيدكم، وفرّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرًا لكم، فادخلوا في أمرنا ندَعْكُم وأرضَكُم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غَلَب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"[٤].

أما الرسالة الثانية فبعثها إلى مَرَازِبة[٥] الفُرس: "بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٣٦١، وقد ورد في الخبر أن المسلمين "افتتحوا الدُّور والدِّيرات، وأكثروا القتل، فنادى القسيسيون والرُّهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيرهم"، وليس المقصود بأن المسلمين كانوا يقتلون الرهبان لأن وصايا الرسول ﷺ في عدم قتلهم واضحة، وكذلك وصايا الخلفاء الراشدين لجيوشهم كما مرّ معنا، ولكن المقصود أن هؤلاء الرهبان تكلموا مع أهل الحصون توسطًا لمن يُقتل ممن لم يستسلم للمسلمين ممن هم خارج الحصون.

(٣) الحِيري: نسبة إلى الكوفة على القياس، ويقال: حَاري سماعًا، ونَبَطي: نسبة إلى الأنباط، وهم الذين يسكنون العراق (الزبيدي، تاج العروس، ١١/ ١٢١ "حير"، ٢٠/ ١٣١ "نبط")، أي كتب بالعربية وبالنبطية ليفهموا عليه جميعًا.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٧٠، وأخرج نحوه: أبو يوسف، الخراج، ص١٤٥، وأبو عبيد، الأموال، ص٤٢ (ح ٨٦)، وسعيد بن منصور، سنن، ٢/ ٢٢٨ (ح ٢٤٨٣)، وابن أبي شيبة، المصنف، ٦/ ٥٤٧، ٥٤٨ (ح ٣٣٧٢٨، ٣٣٤٩)، وابن زنجويه، الأموال، ١/ ١٤٤٣-١٤٤ (ح ١٣١)، وأبو يعلى، أحمد بن علي الموصلي، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين أسد، جدة، دار المأمون للتراث، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ(١٩٨٩م)، ١٣/ ١٤٧ (ح٧١٩٠)، لكنهم في روايتهم أن الكتاب للمرازبة.

(٥) المَرَازِبة: جمع مَرْزُبان: وهو الفارس الشُّجاع الرئيس دون الملك (ابن منظور، لسان العرب، ١/ ٤١٧ "رزب").

مرازبة فارس أما بعد: فأسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا منّي الذّمَّة وأدُّوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شُرب الخمر"[١].

٤- أرسل الخليفة الصِّديق إلى ملك الرُّوم هِرَقْل بعض الصحابة لدعوته إلى الإسلام قبل أي تحركات عسكرية في أراضيه، فبدأوا بملك العرب في الشام جَبَلَةَ بن الأيْهَم الغساني، ثم ساروا إلى هِرَقْل[٢].

٥- وكذا أرسل الصِّديق حاطب بن أبي بلتعة إلى مقوقس مصر[٣].

٦- كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية يطلب منه أن يبعث إلى ملك الفُرس وفدًا من أهل الرَّأي والمنظَرة والجَلَد يدعونه إلى الإسلام، وقال: "فإن الله جاعل دعاءهم توهينًا لهم وفَلْجًا عليهم"[٤].

٧- كما أرسل سعد إلى القائد الفارسي رستم قبل القادسية ثلاثة نفر يدعونه ومن معه إلى الإسلام، في كل يوم يذهب داعية، وفي اليوم الرابع أرسل وفدًا من ستة رجال من أهل الرَّأي والحنكة والحكمة[٥].

٨- مرّ معنا أنّ بعض الفرس اعتصموا بالقصر الأبيض بعد دخول المسلمين المدائن فحاصرهم سعد، وطلب من سلمان الفارسي أن يدعوهم على الرَّغم من سهولة اقتحام القصر، فبقي ثلاثة أيام يترفق بهم حتى نزلوا على الجزية[٦].

٩- قبل معركة نهاوند أرسل النُّعمان بن مقرن المغيرة بن شعبة إلى قائد الفرس ومن معه يدعوهم إلى الإسلام ويحاول ثنيهم عن القتال[٧]، مع أنّ الفُرس قد بلغتهم الدَّعوة

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٧٠، وأخرج نحوه ابن أبي شيبة، المصنف، ١٨/ ٢٥٩ (ح ٣٤٤٢٢) تحقيق: محمد عوّامة، جدة، دار القبلة، ودمشق، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م).

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٢٨، والمعافى بن زكريا، الجليس الصالح، ٣/ ٣٨٩، وأبو نعيم، دلائل النبوة، ١/ ٥٠ (ح ١٣)، وقوَّام السُّنة، دلائل النبوة، ١/ ٩٤ (ح ٨٧)، والبيهقي، دلائل النبوة، ١/ ٩٣، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٧٤/ ١٣.

(٣) أبو عبيد، الأموال، ص١٨٧ (ح ٣٨٦)، وخليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص١٤٣، وابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٥٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٩٥.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٥١٩-٥٢٩.

(٦) المصدر السابق، ٤/ ١٤.

(٧) البخاري، الصحيح، ٤/ ٩٧ (ح ٣١٥٩)، وابن أبي شيبة، المصنف، ١٨/ ٢٨٩ (ح ٣٤٤٨٥)، والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١١٨، وابن حبان، محمد بن حبان الدَّارمي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ (١٩٩٣م)، ١١/ ٦٤ (ح ٤٧٥٦)، والحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري، المستدرك

==

مرارًا، ولم يعد يخفى عليهم حال المسلمين وما يطلبون.

١٠- كتب أبو عبيدة بن الجراح لأهل بيت المقدس لما رفضوا الاستجابة لمطالبه مرارًا بتغليب السِّلم والأمان: "من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيليا وسُكَّانها، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله العظيم ورسوله، أمّا بعد، فإنَّا ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حَرُمَتْ علينا دماؤكم وأموالكم، وكنتم إخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقرّوا لنا بإعطاء الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإن أبيتم سِرْتُ إليكم بقوم هم أشدّ حُبًّا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل لحم الخنزير"[(١)].

١١- من الأدلة العظيمة على حرص القيادة في تغليب السِّلم والأمان، هو تجشم الخليفة الفاروق عناء السَّفر إلى الشام، وترك عاصمة الدولة؛ ليُجري الصُّلح مع أهل بيت المقدس، مع أنّ الفاتحين بإمكانهم محاصرتها والتضييق على أهلها إلى أن تسقط عنوة، ولم يكن ذلك عليهم بمستصعب، وقد فتحوا ما هو أحصن وأقوى، وغلبوا من هم أشد بأسًا وأكثر عددًا!.

١٢- على الرَّغم من انتصارات المسلمين المتلاحقة على الرُّوم في الشام، فإن الخليفة الفاروق بعد أن عاد من رحلته الشَّامية كتب رسالة إلى ملك الرُّوم هرقل يدعوه إلى الإسلام وبعثها مع حذيفة بن اليمان، ولكن هِرَقْل أبى[(٢)].

١٣- حينما وصل عمرو بن العاص بابليون في مصر، هاجمه الجيش الذي أرسله المقوقس، فطلب منهم عمرو أن يتريثوا إلى أن يسمعوا من المسلمين، فخرج بنفسه ودعاهم بحنكة وحكمة وأسلوب لين إلى الإسلام[(٣)].

١٤- بعث عبدالله بن سعد بن أبي السرح في عهد عثمان بن عفان إلى ملك إفريقية يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فأبى[(٤)]، فسار عبدالله بجيشه فالتقى بالملك جرجير، قال ربيعة بن عباد الدَّيلي: "فأقمنا أيامًا تجري بيننا وبينهم

==

على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ (١٩٩٠م)، ٣/ ٣٣٢ (ح ٥٢٧٩)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م، ٦/ ٢١٥-٢١٦ ح ١٠٣٧٩).

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص٢١٩، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ٢٨٩.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ٣٠٤-٣٠٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٠٧.

(٤) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١٣٥-١٣٦.

الرُّسل ندعوه إلى الإسلام، وهو يستطيل ويتجبّر، وقال: لا أقبل هذا أبدًا! فقلنا له: فخراجٌ تُخرجه كل عام، فقال: لو سألتموني درهمًا واحدًا لم أفعل"[١].

١٥- لما حاصر المسلمون جزيرة صقلية أرسلوا رجلاً ليدعو ملكها إلى الإسلام أو الجزية، فتعالى ورفض[٢].

والأمثلة في هذا الباب كثيرة، ولا تخلو مواجهة مع الأعداء إلا وينذرهم الفاتحون بمثل ما سبق، وإنما هذه نماذج.

المبحث السابع
نزاهة القيادة وبعدها عن المطامع الدنيوية

والمراد من هذا المبحث تعزيز مبدأ هدف الجهاد في عصر الراشدين، وذلك بإثبات أنّ دوافع القيادة السياسية للجهاد ليست لمصالح شخصية، وقد فهم البعض - بحسن نية أو سوء نية - من ألفاظٍ وردت في بعض خُطب الخلفاء والقادة والتي يحضّون فيها الجند على القتال بذكرهم لبعض المغانم الدنيوية[٣]، ففسروا حركة الجهاد تفسيرات مادية، وكما سبق وذكرنا بأن هؤلاء لم ينتبهوا للفرق بين الدَّافع وبين النتيجة، فالدافع يُنظر له من مجمل الأعمال والأحداث الكلية الكثيرة، ولا يُنَبَّش عنه في بعض الألفاظ، وكذلك فلا بد من فهم سياق الكلام الذي وردت فيها تلك العبارات، ولذلك لما خطب الصَّديق بالمسلمين يحرضهم على جهاد الرُّوم وتثاقل النَّاس عن التطوع، قام عمر فقال: "أما لو كان عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا لا بتدرتموه"، ففهم عمرو بن سعيد الكلام على ظاهرة، فغضب وقال: "يا ابن الخطاب أولنا تَضرب الأمثال؟! أمثال المنافقين؟!"، فبيَّن الصِّديق مُراد الفاروق، وقال: "إنَّ عمر لم يُرِد بما سمعتَ أذى مسلم ولا تأنيبه، وإنَّما أراد بما سمعتَ أن ينْبَعِثَ المتثاقلون إلى الأرض إلى الجهاد"[٤]، كما أن الحض على القتال بذكر المكاسب لا محذور فيه شرعًا ولا عقلاً، بل إنَّ الرسول ﷺ كان يتتبع قوافل قريش، وهذا أمرٌ سوّغته أسباب كثيرة ومنها استيلاء كفار قريش على ممتلكات المسلمين وأموالهم، والضغط اقتصاديًا على أعدائه، وفي عمليات الفتح جوّزه الترغيب بالمنافع المتحصلة عن الجهاد، ومنها المردود الاقتصادي، فالدين الإسلامي يراعي احتياجات البشر ونوازعهم؛ ولذلك قال عبادة بن الصامت لمقوقس مصر: "إنَّا إنّما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتّباع رضوانه، وليس غزونا عدوّنا ممن حارب الله لرغبة دُنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أنّ الله قد أحلَّ

(١) النويري، نهاية الأرب، ٢٤/ ١٢.
(٢) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١٤١-١٤٢.
(٣) مثل قول عمر وهو يحرض الناس على الجهاد: "إنَّ الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجعة، ولا يقوى عليه أهلُه إلا بذلك" (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٤٥)، والنُّجْعَة: طلب الكلأ في موضعه (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٧٦٥ "نجع").
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٦٤.

ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً"[١]، ولا يسمح المجال لذكر أمثلة أخرى على تصوّر الفاتحين لهذه المسألة، وقد قالوا مرارًا: "والله لإسلامُكمْ أحب إلينا من غنائمكم"[٢]، ولكن يكفي أن نذكر أمثلة لنزاهة القيادة والقادة، ممّا لا تصمد أمامه أية محاولات تفسيرية مغلوطة لنصوص مقتطعة من سياقها، والأمثلة لا تُحصى، وخلال البحث نماذج متعددة، ونسوق هنا بعض القصص العجيبة:

لما أَيِسَ أهل الحيرة من مقاومة جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، وقبلوا النُّزول على خِيَار الإسلام أو الجزية، اجتمع زعماء الحصون الأربعة بخالد، فخلا بأهل كلّ قصر منهم دون الآخرين ودعاهم إلى الإسلام، واجتهد في إقناعهم بالحُجّة العقلية والعاطفية، وقال: "ويْحَكُمْ! ما أَنْتُمْ! أَعَرَبٌ؟ فما تَنقِمُون من العرب! أَو عَجَمٌ؟ فما تنْقِمُون من الإنْصَافِ والعدل؟". فقال له عدي بن عدي صاحب قصر العدَسيين: "بلْ عَربٌ عَارِبةٌ وأُخرى مُتَعَرِّبَةٌ. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تُحَادُّونَا وتَكْرَهُوا أمرنا"، وخَيَّرهم، فاختاروا الجزية، فتأثر خالد وقال لهم: "تَبًّا لكم! ويْحَكُم! إنَّ الكُفْرَ فَلاةٌ مَضَلَّة، فَأَحْمَقُ العرب من سَلكَها فلقيه دَليلانِ: أحدُهما عَربيٌّ فتركهُ واستدلَّ الأعجميَّ"[٣].

وهذا في غاية العجب، أن ينزعج القائد لقبول أولئك لدفع الجزية بدلاً عن الإسلام؛ على الرغم من أن العائد المادي له فوائده التي لا تخفى على الدولة آنذاك، وإسلامهم فيه حِمْل على القيادة، فقد قال لهم: "أنْ تدخُلُوا في ديننا فلكُم ما لنا وعليكم ما علينا إنْ نَهَضْتُم وهاجرْتُم وإن أقَمْتُم في ديارِكُم"[٤]، ولكن هذه هي القيادة النزيهة حقًا، والتي تسعى لسعادة البشرية صدقًا، وليست المصطنعة من دول الاستعمار الحديث.

ولا ينقضي العجب من نزاهة القيادة مع أهل الحيرة على الرَّغم من حاجة الدولة الماسة للمال في ذلك الوقت الحَرِج، فلمّا صالح خالد أهل الحيرة على مبلغ من المال، أهدوا له هدايا، فبعث خالد بالهدايا وبالفتح إلى أبي بكر، فقبل أبو بكر الهدايا على أن تُحسب من الجزية، وكتب إلى خالد أن يحسب لهم هديتهم من الجزية إلا أن تكون هي من الجزية فعلاً، بل حتى بقية الجزية لم تطلب الخلافة إرسالها للعاصمة لتتمتع بها القيادة والحاشية، بل قال الصّديق: "وخذ بقية ما عليهم فَقوِّ بها أصحَابك"[٥].

وفي تعامل عمر مع الأخماس التي تَفِدُ إليه من الفتوح أعجب العجب، ومن ذلك أخماس جلولاء،

(١) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٦٦-٦٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٢٨.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٣٦١-٣٦٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٣٦٢.

فلما رآها قال: "والله لا يُجِنُّهُ سقفُ بيتٍ حتى أَقْسِمَهُ. فباتَ عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن أَرْقَم يحرُسَانِهِ في صَحْنِ المسجد. فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جَلابِيبَه - وهي الأَنْطَاعُ[(١)] - فلما نظَرَ إلى ياقُوتِهِ وزَبَرْجَدِهِ[(٢)] وجَوْهَرِهِ بَكَى، فقال له عبدالرحمن: ما يُبكيكَ يا أمير المؤمنين! فوالله إنَّ هذا لموطِنُ شُكْرٍ. فقال عمر: والله ما ذاكَ يُبْكِيني، وتالله مَا أَعْطَى الله هذا قومًا إلا تحاسَدُوا وتباغَضُوا، ولا تحاسدوا إلا أُلقِيَ بأَسْهُم بَيْنَهُم"[(٣)]، ونحو هذه القصة جرت مع أبي الدرداء لما رأى غنائم قبرص حينما فتحها معاوية في عهد عثمان بن عفان[(٤)].

فأيّ زهد أشد من هذا!، وأيّ صفاء نية ونقاء سريرة أعظم من البكاء عند رؤية الدُّنيا وقد فُتحت على أولئك!، وهل يقاس زهد القائد الأعلى في عصر الراشدين وقد نُثرت الدُّنيا بين يديه بزهد أحد لم يُحصِّل منها إلا يسيرًا!، ونلاحظ أنّ الفاروق جاء بالناس معه ليكونوا عليه رُقباء، فلا توزيع للمال العام في الخفاء.

وفي قصة طويلة تدل على زهد القيادة والقادة والجند ونزاهتهم، نذكر ملخّصها: لما فتح أبو موسى الأشعري تُسْتَر ودخل قلعة الهرمزان، انتبه أحد الجند حيث لا يراه أحد إلى تمثال مادٍّ يدَه نحو الأرض، فتفرّس بأنّه يُشير إلى كنزٍ، فذهب إلى أبي موسى وأخبره، فبعث ثقاةً من أصحابه وحفروا، فإذا هم بسَفَطٍ[(٥)] عظيم مُقْفَل، فأمر به فَفُتِح، فإذا فيه من الدَّنانير والذهب والجواهر ما يبهر العقول،

---

(١) الأَنْطَاع: جمع نَطْع، وهو البساط من الجلد (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٧٦٧ "نطع").

(٢) الزَّبَرْجَد: الزُّمُرُّد (ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٧/ ٦٠٠ "ز ب ر ج د")

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٣٠، والخبر ورد مطولا ومختصرًا عند: المعافى الموصلي، أبو مسعود المعافى بن عمران، كتاب الزهد، تحقيق: عامر صبري، بيروت، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م)، ص١٨٠ (ح٦)، ومعمر بن راشد، أبو عمرو الأزدي، الجامع، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مطبوع مع مصنف عبدالرزاق، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ١١/ ٩٩ (ح ٢٠٠٣٦)، وابن المبارك، أبو عبدالرحمن عبدالله، كتاب الزهد، تحقيق: حبيب الرحمن

==

==

الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، وتوزيع دار الباز بمكة، ص٢٦٥ (ح ٧٦٨)، وابن أبي شيبة، المصنف، ١٩/ ١٣٩ (ح ٣٥٥٨٧)، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ٢٨٥، والبيهقي، السنن الكبرى، ٦/ ٥٨٢ (ح١٣٠٣٥)، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٤/ ٣٣٨-٣٤٠، وغيرهم.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٦٢، وابن أعثم، الفتوح، ٢/ ١٢٠.

(٥) السَّفَط: الذي يُعبَّى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النِّساء، مثل القُفة (الزبيدي، تاج العروس، ١٩/ ٣٥٠ "سفط").

فأخذ أبو موسى منه فَصّ ياقوت، وختمه وأرسل به إلى عمر، فكتم عمر هذا السَّفط عن الهرمزان وسأله عن جميع أمواله فأخبره حتى أتى على ذكر الكنز المدفون، فأمر به عمر فأُحضر، وقال له: انظر هل تفقد منه شيئًا، ففتحه ولم يفقد إلا ذلك الفَصّ، فأخبره عمر بأنّ أبا موسى استوهبه، وطلب من الهرمزان أن يهبه له، فقال: فإني قد جعلته له، وهو أعفّ رجل يكون إذْ لم يكتمك أمر هذا الفَصّ[١].

وهاهو النُّعمان بن مُقَرِّن قائد معركة نهاوند لا يطلب من الدُّنيا شيئًا إلا أن يُقرّ الله عينه بالنَّصر ثم يرزقه الشهادة، بل ويعزم على جيشه أن يؤمنوا على دعائه، قال: "إني أدعو الله عز وجل بدعوةٍ فعزمتُ على كل امرئ منكم لما أمّن عليها، اللهم إني أسألكَ أن تُقِرّ عَيني اليوم بِفَتْحٍ يكون فيه عِزُّ الإسلام، وذُلٌّ يُذَل به الكفار، ثم اقْبِضْنِي إليك بعد ذلك على الشَّهادة، أمِّنوا يرحمكم الله!" فأمنوا وبكوا، ثم نزع درعه ورماها، واستشهد في المعركة[٢]، فهو لم يتحمل عبء قيادة هذه المعركة الخطير لأجل جاهٍ ولا مالٍ أو متاعٍ زائل.

وأهدى أهل جُزْزان[٣] لحبيب بن مسلمة هدية فحسبها من جزيتهم، لما رغبوا في المصالحة[٤].

ولما توفي عياض بن غنم لم يجدوا خلفه إلا فرسين، وجملاً يضع عليه حوائجه، ولم يجدوا في ثيابه وأمتعته دينارًا واحدًا، مع كل ما غنمه من المعارك الكثيرة التي خاضها في العراق والشام والجزيرة الفراتية، فقد تصدق بها كلها[٥].

وهذه بعض القصص الطريفة والرائعة للخليفة الفاروق، والتي يُغني سردها عن التعليق عليها:

لما ذهب عمر إلى الشام ليعقد الصُّلح مع أهلها، بناءً على طلبهم، وصل ﷺ وهو بحالة رثَّة، فأراد بعض الصحابة منه أن يَظْهر بشيء من الأُبهة أمام السُّكان المحليين والبطارقة والزعماء والوجهاء، وأتوه ببرذون وثياب بيض، وقالوا: "اركب هذا البرذون؛ فإنه أجمل بك وأهون عليك في ركوبك، ولا نُحب أن يراك أهل الذِّمة في مثل هذه الهيئة التي نراك فيها"، لكنّه رفض وقال: "ويحكم! لا تعتزُّوا بغير ما أعزَّكم الله به فتذِلوا"، ولما أتاه رجال من المسلمين وقد لبسوا لباس الرُّوم وتشبَّهوا بهم في هيئتهم، قال عمر: "احثوا في وجوههم التراب حتى يرجعوا إلى هيئتنا وسُنتنا ولباسنا"، فقال له يزيد بن

(١) ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ٢٥-٢٧، ونحوه عند أبي حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٣٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١١٩، ١٤٣.

(٣) جُزْزان: اسم جامع لناحية بأرمينية، وقصبتها تفليس (ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ١٢٥)، وهي جورجيا الحالية، وتفليس هي العاصمة الحالية (تبلّيسي).

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٣.

(٥) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ٢٦١، تحقيق شيري.

أبي سفيان: "يا أمير المؤمنين، إن الدَّواب والثياب عندنا كثيرة، والعيش عندنا رفيع، والسِّعر عندنا رخيص، وحال المسلمين كما تُحبّ، فلو أنَّك لبست من هذه الثياب البيض، وركبت من هذه الدَّواب الفُرْه، وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير، كان أبعد للصوت، وأزين لك في هذا الأمر، وأعظم لك في الأعاجم. فقال له: يا يزيد، لا والله لا أدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبيَّ، ولا أتزيّن للناس بما أخاف أن يشنئني عند ربي، ولا أُريد أن يعظم أمري عند النَّاس ويصغر عند الله"[(١)]، واستقبلت جنود المسلمين عمر وعليه إزار وخفَّان وعمامة، وهو آخذٌ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، تَلْقاك الجنود وبطارقة الشام، وأنتَ على هذه الحال!، فقال: إنَّا قوم أعزَّنا الله بالإسلام، فلن نلتمس العزَّ بغيره[(٢)]، وفي رواية عن طارق بن شهاب قال: "خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ، وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟، مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالاً لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا الله بِالإِسْلاَمِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا الله بِهِ أَذَلَّنَا الله"[(٣)].

وقد أحدثت هيئة عمر أثرًا إيجابيًا عكس ما كان بعض الصحابة يتوقعونه، فقد سأل أهل الشام حينما أقبل عليهم عمر وكان معه بعض أصحابه: أين أمير المؤمنين؟ فقالوا: قدامكم، فيذهبون ويتجاوزونه، ثم يسألون مرة أخرى، حتى رأوه في رجل أو اثنين، فقالوا: "هذه والله الرَّهبانيَّة لا رهبانيتُكُم"[(٤)].

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص٢٢٨-٢٢٩، وابن أعثم، الفتوح، ١/ ٢٩٤-٢٩٥، وهذا الخبر مستفيض في المصادر، وتفاصيله كثيرة، وينظر ما عند الطبري، تاريخ، ٣/ ٦٠٧ وما بعدها.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ١٨/ ٣٢٠ (ح ٣٤٥٣٩)، ١٩/ ١٣٨ (ح ٣٥٥٨٥)، والحاكم، المستدرك، ١/ ١٣٠ (ح ٢٠٨)، وقوَّام السُّنة، إسماعيل بن محمد لأصبهاني، سير السلف الصالحين، تحقيق: كرم أحمد، الرياض، دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م)، ص١٤٢-١٤٣.

(٣) الحاكم، المستدرك، ١/ ١٣٠ (ح ٢٠٧)، وأخرجه ابن المبارك، الزهد، ص٢٠٧ (ح ٥٨٤)، وأبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، مكتبة الخانجي، وبيروت، دار الفكر، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م)، ١/ ٤٧، وأخرجه غيرهم، وبروايات يزيد بعضها على بعض.

(٤) ابن شبة، أبو زيد عمر، أخبار المدينة، تحقيق: فهيم شلتوت، جدة، دار الأصفهاني، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، ٣/ ٨٢٥.

وبعد معركة نهاوند أقبل الهِرْبذ[١] إلى حذيفة بن اليمان - والذي تولى القيادة بعد استشهاد النُّعمان بن مقرِّن - فقال له: أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟ قال: نعم. قال: إن النّخَيْرَجان[٢] وضع عندي ذخيرة لكسرى، فأنا أُخرجها لك على أماني وأمان من شئتُ. فأعطاه ذلك، فأتى بسَفَطَين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزَّبَرْجَد والياقوت، وهي ذخيرة كسرى، جوهرًا كان أعده لنوائب الزمان، فنظروا في ذلك، فأجمع رأي المسلمين على رفعه إلى عمر، فجعلوه له، فأخَّروه حتى فرغوا، فبعثوا به مع ما يُرفع من الأخماس مع السائب بن الأقرع[٣].

فلما قدم السائب على عمر، وأطلعه على الأخبار، قام عمر ليدخل، فقال له السائب: "إنّ معي مالاً عظيمًا قد جئت به. ثم أخبره خبر السَّفَطَين، قال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك".

قال السائب: "فأدخلتُهما بيت المال، وخرجتُ سريعًا إلى الكوفة، قال: وباتَ تلك الليلة التي خرجتُ فيها، فلما أصبح بعثَ في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة، فأنختُ بعيري، وأناخ بعيره على عُرقوبَيْ بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك، فلم أقْدِر عليك إلاّ الآن. قال: قلتُ: ويلك! ماذا ولماذا؟، قال: لا أدري والله. قال: فركبتُ معه حتى قدمتُ عليه، فلما رآني قال: مالي ولابن أمّ السائب! بل ما لابن أم السائب ومالي!، قال: قلتُ: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟، قال: ويحك! والله ما هو إلا أن نمتُ في الليلة التي خرجتَ فيها، فباتت ملائكة ربي تَسحَبُني إلى ذينك السَّفَطين يشتعلان نارًا، يقولون: لنكوينّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخُذْهُما عنّي لا أبا لك والحق بهما، فَبِعْهُمَا في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجتُ بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، وغشيني التجار، فابتاعهما منّي عمرو بن حُريث المخزومي بألفي ألف، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم، فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد"[٤]، وطلب عمر أن يُقسم المال بين المجاهدين[٥].

وبلغت نزاهة الفاروق حدًا لا يمكن وصفه، وأخباره كثيرة، ولكن فيما نحن بصدده، يروي أبو عثمان النَّهدي قال: "كنت مع عتبة بن فَرْقَد حين

(١) الهِرْبذ: الكاهن المجوسي القائم على بيت النّار (المعجم الوسيط، ٢/ ٩٨٠ "هربذ").

(٢) من زعماء الفُرس وقادتهم العسكريين.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١١٦، ١٣٣.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ١١٦-١١٧.

(٥) المصدر السابق، ٤/ ١٣٥، وبنحوه ذكره ابن أعثم، الفتوح، ٢/ ٥٩-٦٢، وذكر بعض القصة أبي حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٣٧-١٣٨وذكر أن الخبر مشهور.

افتتح أذربيجان، فصنع سَفَطَين فيهما خَبِيصْ[١]، وألبَسَهُما الجلود واللُّبُود[٢]، ثم بعث بهما إلى عمر مع سُحَيْم مولاهُ، فلما قدم عليه، قال: ما الذي جئتَ به؟ أذهبٌ أم وَرِق؟ وأمرَ به فكُشفَ عنه، فذاق الخَبِيْصَ، فقال: إنَّ هذا لطيّب ليِّنٌ! أفكُلُّ المهاجرين أكلَ منه شِبَعَهُ؟ قال: لا، إنَّما هو شيءٌ خصّك به. فكتب إليه عُمر: أما بعدُ: فليسَ من كَدِّكَ، ولا كَدِّ أُمِّكَ، ولا كَدِّ أبيكَ، لا تأكلُ إلا ما شَبِعَ منه المسلمون في رِحَالِهِم"[٣].

ولما فتح المسلمون فَسَا ودَارَبَجِرْد بقيادة سَارِيَة بن زُنَيم أصابوا مغانم كثيرة، وأصابوا سَفَطًا فيه جَوْهر، فاستأذن سارية جيشه بأن يهبه لعمر، فوهبوه له، "فبعث به مع رَجُلٍ وبالفتح، وكان الرُّسُلُ والوَفْدُ يُجَازُون وتُقْضَى لهم حَوَائِجُهُم، فقال له سارية: اسْتَقْرِضْ ما تُبلِّغ به وما تُخلِّفه لأهلكَ على جَائِزَتِك. فَقَدِم الرَّجلُ البَصْرَة ففعل، ثم خرج فَقَدِم على عمر، فَوَجَدَهُ يُطعم الناس، ومعه عَصَاه التي يَزْجُر بها بَعِيرَهُ، فَقَصَدَ له، فأقْبَلَ عليه بها، فقال له: اجْلِس. فَجَلَس حتى إذا أكَلَ القُوْمُ انصرف عمر، وقام فَأَتْبَعَهُ، فظنَّ عمر أنه رَجُلٌ لم يَشْبع، فقال حين انتهى إلى باب داره: ادْخُل. (ثم ذكر قصة، إلى أن أخبره الرَّجل بأنّه رسولُ سارية بن زُنيم)، فقال عمر: مرحبًا وأهلا، ثم أَدْنَاه حتى مَسَّتْ رُكْبَتُهُ رُكْبَتَهُ، ثم سأله عن المسلمين، ثم سألَهُ عن سارية بن زُنَيْم، فأخبره، ثم أخبره بقصة الدُّرْج[٤] الذي معه، فنظر إليه ثم صَاحَ إليه ثُمَّ صاحَ به، ثم قال: لا وَلا كَرَامَةَ حتى تَقْدَمَ على ذلك

---

(١) الخَبِيص: حلوى من التمر والسَّمن تُخْبَص مع بعض (الزبيدي، تاج العروس، ١٧/ ٥٤٢ "خبص").

(٢) اللَّبُود: جَمع لِبْدٍ، وهو صوفٌ يُنْدَفُ، ثم يُبَلُّ ويُوطَأُ بالرِّجْلِ حتى يتلبّدَ بعضُهُ على بعض ويَشْتَدّ (بطال الرِّكْبي، محمد بن أحمد، النظم المُسْتَعْذب في تفسير ألفاظ المُهَذَّب، تحقيق: مصطفى سالم، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤٠٨، ١٤١١هـ(١٩٨٨، ١٩٩١م)، ١/ ٣١).

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٠/ ٣٢٠، ١٣/ ٣٢٣، وفتوح البلدان، ص٤٥٨-٤٥٩، وأخرجه ابن أبي شيبة، المصنف، ١٢/ ٣٢٥ (ح ٣٣٥٨٨)، وابن السَّري، هنَّاد بن السَّري التميمي الكوفي، الزهد، تحقيق: عبدالرحمن الفريوائي، الكويت، دار الخلفاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ، ٢/ ٣٦٥ (ح ٦٩٧)، والبيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ٢١٧ (ح ٢٠٤١٢)، وعند مسلم دون ذكر القصة أن عمر كتب إلى عتبة بن فرقد: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ وَلاَ مِنْ كَدِّ أَبِيكَ وَلاَ مِنْ كَدِّ أُمِّكَ فَأَشْبِعِ

==

==

المُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ" (مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، المسند الصحيح المختصر من السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت، ٣/ ١٦٤٢ ح ٢٠٦٩).

(٤) الدُّرْج: هو السَّفط، والمقصود ما يُدْرج ويستر ويغطى لحفظ الأشياء (ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٢/ ٢٧٥ "درج").

الجُنْد فَتُقَسِّمَهُ بينهم، فَطَرَدَهُ. فقال: يا أمير المؤمنين إِنِّي قد أَنْضَيْتُ[١] إبلي واسْتقرضتُ في جَائِزَتِي فأعْطني ما أَتَبَلَّغُ به، فما زَالَ عنه حتى أَبْدَلَهُ بعيرًا ببعيره من إبل الصَّدقة، وأخذ بعيرهُ فأدخَلَهُ في إبل الصَّدقة، ورجع الرَّسُولُ مَغْضُوبًا عليه محرومًا حتى قدم البصرة، فَنَفَذَ لأمر عمر"[٢].

وهذه قصة أخرى مشابهة لرسول آخر مع عمر بتفصيل أكثر:

كان عمر قد بعث سلمة بن قيس الأشجعي لقتال الأكراد، قال سلمة: فَسِرنا حتى لقينا عدونا من المشركين من الأكراد، فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين فأبوا أن يُسْلِموا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا أن يُقرّوا، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم. يقول الرَّاوي، وهو رسول سلمة إلى عمر: "ثم إنّ سلمة بن قيس أمير القوم دخل، فجعل يَتَخَطَّى بيوت نارِهم، فإذا بِسَفَطَيْنِ مُعَلَّقَيْن بأعلى البيت، فقال: ما هذان السَّفَطَان؟ فقالوا: أشياء كانت تُعَظِّمُ بها الملوك بيوت نارهم، فقال: أَهْبِطُوهُمَا إليَّ، فإذا عليهما طَوَابِع الملوك بعد الملوك قال: ما أَحْسَبُهُمْ طَبَعُوا إلا على أمرٍ نَفِيس، عليَّ بالمسلمين، فلما جاءوا أَخْبَرَهُم خبر السَّفَطَيْن، فقال: أردتُ أن أَفُضَّهُمَا بمحْضَرٍ منكم، فَفَضَّهُمَا، فإذا هما مملوءان بما لم يُرَ مِثْلُهُ، أو قال: لم أرَ مِثْلَهُ، فأقبل بوجهه على المسلمين، فقال: يا معشر المسلمين، قد علمتم ما أبلاكُمُ الله في وَجْهِكُم هذا، فهل لكم أن تَطِيبُوا بهذين السَّفَطَيْن أَنْفُسًا لأمير المؤمنين؛ لحَوَائِجِه وأُمُورِه وما يَنْتَابُه، فأجابوه بصوت رجل واحد: إنَّا نُشْهِدُ الله أنَّا قد فعلنا، وطابَتْ أَنْفُسُنَا لأمير المؤمنين، فدعاني، فقال: قد عَهِدْتَ أميرَ المؤمنين يوم الحَرَّة، وما أوصانا، وما اتَّبَعْنَا من وصيته وأمر السَّفَطَين، وطِيبِ أَنْفُس المسلمين له بهما، فَأتِ بهما إلى أمير المؤمنين، واصْدُقْهُ الخبر، ثم ارجع إليَّ بما يقول لك، فقلتُ: ما لي بُدٌّ من صاحب، فقال: خُذ بِيَدِ من أحببت. فأخذت بيد رجل من القوم، فانطلقنا بالسَّفَطَيْن نَهُزُّهُمَا حتى قدمنا بهما المدينة، فأجلست صاحبي مع السَّفَطِين، وانطلقت أطلب أمير المؤمنين عمر ﷺ، فإذا به يغدي الناس (ثم ذكر قصة وفيها أنه دخل معه منزله إلى أن) قال: فجئت إلى ذكر السَّفَطَيْن، فأخبرتُهُ خَبَرَهُمَا، فحلف الرَّسُول عندها يمينًا أُخرى، والله الذي لا إله إلا هو لكأنما أُرْسِلَتْ عليه الأفاعي والأَسَاوِدُ والأَرَاقِمُ أَنْ وَثَبَ كَمَكَان تِيكَ، ثم أقبل عليَّ بوجهه آخِذًا بِحَقْوَتِهِ، فقال: لله أَبُوكَ! وعَلامَ يكونان لعُمر؟ والله لَيَسْتَقْبِلَنَّ المسلمون الظَّمَأَ والجُوع والخَوف في نُحُور العدو، وعمر يَغْدُو من أهله ويروحُ إليهم يَتَّبِعُ أَفْيَاء المدينة، ارجع بما جِئْتَ به فلا حَاجة لي فيه، فقلتُ:

---

(١) أَنْضَيْتُ: أهزلتُها وأذهبتُ لحمها (ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، كتاب الألفاظ، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص١٠٦).

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٧٨-١٧٩، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٠/ ٢٦-٢٧.

يا أمير المؤمنين، إنّه أُبْدِعَ بي[١] وبصاحبي فاحملنا، قال: لا، ولا كَرَامة للآخِرِ! ما جئتَ بما أُسَرُّ به فَأَحْمِلَكَ، قلتُ: يا لعِبَاد الله! أَيْتْرَكُ رَجُلٌ بين أَرْضَيْنِ؟، قال: أما لولا قُلْتَهَا، يا يَرْفَأُ انطلق به فاحْمِلْهُ وصَاحِبَهُ على ناقتين ظِهْرِيَّيْنِ من إبل الصدقة، ثم انْخَسْ بهما حتى تُخرجهما من الحَرَّة، ثم التفتَ إليَّ فقال: أما لئن شَتَا المسلمون في مَشَاتِيهم قبل أن يُقْسَمَا بينهم لأعْذِرَنَّ منك ومن صُوَيْحِبِكَ، ثم قال: إذا انتهيتَ إلى البلاد فانظر أَحْوَجَ من تَرَى من المسلمين فادفع إليه النَّاقَتَيْن، فأَتَيْنَاهُ فأخبرناه الخبر، فقال: ادْعُ لي المسلمين، فلما جاءوا قال: إن أمير المؤمنين قد وَفَرَكُمْ بِسَفَطَيْكُم، وَرَآكُمْ أحقَّ بهما منه، فاقْتَسِمُوا على بَرَكَةِ الله، فقالوا: أَصْلَحَكَ الله أيها الأمير! إنَّهُ ينبغي لهما بَصَرٌ وتَقْوِيمٌ وقِسْمَةٌ، فقال: والله لا تبرحون وأنتم تطلبونني منها بِحَجَرٍ، فَعَدَّ القَوْمَ وَعَدَّ الحِجَارة، فَرُبَّما طَرحوا إلى الرَّجُل الحَجَرَيْن، وفَلَقُوا الحَجَرَ بين اثنين"[٢].

وفي رواية قال عمر: "أما والله لئن تَفَرَّق المسلمون في مَشَاتِيهِمْ قبل أن يُقسم هذا فيهم لأفْعَلَنَّ بِكَ وبِصَاحِبَكَ الفَاقِرَة!، قال: فارْتَحَلْتُ حتى أتيتُ سلمة، فقلتُ: مَا بَارك الله لي فيما اخْتَصَصْتَنِي به، اقْسِمْ هذا في النَّاس قبلَ أن تُصيبني وإيَّاكَ فَاقِرَةٌ"[٣].

المبحث الثامن

شهادة الأعداء على صدق هدف الفاتحين

وقد شهد الأعداء بصدق دعوة المسلمين والتي تجلّت في أخلاقهم وتعاملاتهم وسلوكهم، وذلك في مواقف كثيرة، نذكر منها: لما بلغ هِرَقْل انتصارات خالد بالشام قال لجلسائه: "ألم أَقُلْ لكم لا تُقاتلوهم! فإنّه لا قَوَام لكم مع هؤلاء القَوْم، إنَّ دينهم دين جديد، يُجدد له ثبارهم[٤]، فلا يقوم لهم أحد حتى يبلى"[٥].

وقبل موقعة أجنادين بالشام بعث القائد الرُّومي رجلا عربيًا إلى معسكر المسلمين، فقال له: "ادخل في هؤلاء القوم، فَأَقِمْ فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم. فَدَخَلَ في النَّاس رجلٌ عربي لا يُنْكَر، فأقام فيهم يومًا وليلة، ثم أتاه، فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رُهْبَان، وبالنَّهار فُرْسَان، ولو سَرَقَ ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رُجِمْ؛ لإقامة الحق فيهم. فقال له القائد: لئن كنتَ صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددتُ أنَّ حظي من الله أن يخلى بيني وبينهم، فلا ينصرني

(١) أُبْدِع بي: يقال للرَّجل إذا كَلت ناقته أو عطبت وبقي مُنْقَطِعا به قد أُبْدِع به (أبو عبيد، غريب الحديث، ١/ ٩ "بدع").

(٢) سعيد بن منصور، سنن، ٢/ ٢١٧-٢٢٢، وصحح إسناده ابن حجر (الإصابة، ٣/ ١٢٨).

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٨٩.

(٤) على ثِبَارِ أمْرٍ: على إشرافٍ من قَضائِهِ (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٣٥٨ "ثبر").

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٠٣.

عليهم، ولا ينصرهم عليَّ"[١].

وتكرّر مثل هذا قبل معركة اليرموك، إذْ دسَّ أحد قادة الرُّوم جاسوسًا من عرب الشام إلى المسلمين، فلما سأله عن حالهم، قال: "جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يُصلون، ويصومون النَّهار، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، رُهْبان بالليل، أُسْد بالنَّهار، لو يسرق ملكهم فيها لقطعوه، ولو زنا رجموه؛ لإيثارهم الحق واتباعهم إيّاه على الهوى. فقال القائد: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يُريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها"[٢].

وقال نصارى الشام للمسلمين قبل موقعة فِحْل: "يا معشر المسلمين، أنتم أحبّ إلينا من الرُّوم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم قد غلبونا على أمرنا، وعلى منازلنا"[٣].

وشهد شيخ كبير في مجلس ملك الروم عن حال الفاتحين حينما تعجب هرقل من الانتصارات السَّريعة للمسلمين على الرّغم من قلة عددهم، فقال ذلك الشيخ: "من أجل أنَّ القوم يقومون الليل، ويصومون النَّهار، ويُوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحدا، ويتناصفون فيما بينهم"[٤].

ونقلت عيون بطريق الرُّوم حال الفاتحين حينما كانوا يُحاصرون دمشق "أما الليل فطول القيام، وأما النَّهار فالخير الظاهر، والحرص على الجهاد، وإن وجد أحدهم نعلاً، أو كُبَّة من شَعْرٍ أو غزل دفعها إلى صاحب الغُنْم، فإذا قال صاحب المقسم: ما هذا؟ قالوا: هذا لا نَسْتَحِلّه إلا بِحِلّهِ. فلمَّا سمع عظيم دمشق هذه القصة، قال: ما لنا بهؤلاء طاقة، ولا لنا في قتالهم خير"[٥].

ومرَّ معنا قصة ردّ المسلمين لخراج أهل حمص وأهل دمشق قبل معركة اليرموك؛ خشية من عدم قدرتهم على حمايتهم، فقالوا: "ردَّكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الرُّوم، ولكن لو كانوا هم ما ردّوا علينا، بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا"[٦]، وتأثر أهل حمص وقالوا: "لَولايَتكم وعَدْلكم أحبُّ إلينا ممَّا كُنَّا فيه من الظلم والغَشْم، ولندفعَنَّ جُنْدَ هِرَقْل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا

(١) المصدر السابق، ٣/ ٤١٨، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ٩٦.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص١٨٩.

(٣) الأزي، فتوح الشام، ص٩٧، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤١/ ١٣٠.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص١٣٣، ونحوه عند ابن أعثم، الفتوح، ١/ ٢١٩.

(٥) الأزدي، فتوح الشام، ص٨٤-٨٥، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/ ١٢٣-١٢٤، والقصة بأطول من هذا عند ابن أعثم، الفتوح، ١/ ١٥١.

(٦) الأزدي، فتوح الشام، ص١٣٨، ونحوه عند أبي يوسف، الخراج، ص١٣٩.

يدخل عامل هِرَقْل مدينة حمص إلَّا أن نُغْلَب ونُجْهَد، فأَغْلَقُوا الأبواب وحَرَسُوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صُولحتْ من النَّصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الرُّوم وأتباعهم على المسلمين صِرْنا إلى ما كُنَّا عليه، وإلَّا فإنَّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلمَّا هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مُدنهم، وأخرجوا المقلِّسين[١] فلعبوا، وأدُّوا الخراج"[٢].

وحكى أبو بشير التنوخي مسيره مع الرُّوم إلى اليرموك، قال: "كنتُ نصرانيًا، فنُصِرَت النَّصرانية على العرب، وأقبلتُ مع الرُّوم فجعلنا لا نمرّ بأحد من أهل البلد إلّا وجدناهم أحسن شيء ثناءً على العرب في كلِّ شيء من أمرهم وفي سيرتهم"، ثم حكى بعض ما كان الرُّوم يفعلون من مظالم بالسكان المحليين[٣].

ولما خرج هِرَقْل من الشام بعد هزيمة اليرموك لحقه رجلٌ من الرُّوم كان أسيرًا في أيدي المسلمين، فأفلت منهم، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أُحدِّثك كأنك تنظر إليهم، فُرسان بالنَّهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنتَ صدقتني ليرثُنَّ ما تحت قدمي هاتين"[٤].

وفي حصار بابليون بمصر أرسل المقوقس وفدًا لمفاوضة المسلمين، فلما رجعوا سألهم عن حال الفاتحين، فقالوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرِّفعة، ليس لأحدهم في الدُّنيا رغبة ولا نهْمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على رُكَبهم، وأجيرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيّد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم. فقال المقوقس: والذي يُحلف به لو أنَّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد"[٥]، وكرّر نحو قوله لما قابل وفد المسلمين[٦].

ولما عاين المقوقس ما عاين من المسلمين شهد على حالهم بكلام طويل، ومما قال: "إن الرَّجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منَّا، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ... وليس لهم رغبة في الدُّنيا ولا لذة إلا قدر بُلْغة العيش من الطعام واللباس، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها"[٧].

وهرب يزدجرد ملك الفرس من المسلمين

(١) التَّقْلِيسُ: الضَّرب بالدُّف والغِناء، وهو استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو (الزبيدي، تاج العروس، ١٦/ ٣٩٥ "قلس").
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ١٨٧.
(٣) الأزدي، فتوح الشام، ١٥٥-١٥٨.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٦٠٣.
(٥) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٦٥.
(٦) المصدر السابق، ص٦٧.
(٧) المصدر السابق، ص٧١.

فاستنجد بملك الصين، وبعث له بهدايا كثيرة، فسأل ملك الصين رسول يزدجرد عن حال المسلمين، وحكى الرسول الحوار الذي دار بينه وبين ملك الصين، فقال سألني: "أَيُوفُونَ بِالْعَهْدِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَمَا يَقُولُونَ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ؟ قُلْتُ: يَدْعُونَنَا إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلاثٍ: إِمَّا دِينُهُمْ فَإِنْ أَجَبْنَاهُمْ أَجْرُونَا مُجْرَاهُمْ، أَوِ الْجِزْيَةُ وَالْمَنَعَةُ، أَوِ الْمُنَابَذَةُ قَالَ: فَكَيْفَ طَاعَتُهُمْ أُمَرَاءَهُمْ؟ قُلْتُ: أَطْوَعُ قَوْمٍ لِمُرْشِدِهِمْ، قَالَ: فَمَا يُحِلُّونَ وَمَا يُحَرِّمُونَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: أَيُحَرِّمُونَ مَا حُلِّلَ لَهُمْ، أَوْ يُحِلُّونَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قُلْتُ لا، قَالَ: فَإِنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَهْلِكُونَ أَبَدًا حَتَّى يُحِلُّوا حَرَامَهُمْ وَيُحَرِّمُوا حَلالَهُمْ ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ لِبَاسِهِمْ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَعَنْ مَطَايَاهُمْ، فَقُلْتُ: الْخَيْلُ الْعِرَابُ - وَوَصَفْتُهَا - فَقَالَ: نِعْمَتِ الْحُصُونُ هَذِهِ! وَوَصَفْتُ لَهُ الإِبِلَ وَبُرُوكَهَا وَانْبِعَاثَهَا بِحَمْلِهَا، فَقَالَ: هَذِهِ صِفَةُ دَوَابٍّ طِوَالِ الأَعْنَاقِ.

ثم كتب إلى يزدجرد كتابا: أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ بِجَيْشٍ أَوَّلُهُ بِمَرْوَ وَآخِرُهُ بِالصِّينِ الْجَهَالَةُ بِمَا يَحِقُّ عَلَيَّ، وَلَكِنْ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَصَفَ لِي رَسُولُكَ صِفَتَهُمْ لَوْ يُحَاوِلُونَ الْجِبَالَ لَهَدُّوهَا، وَلَوْ خلى سَرْبهم أَزَالُونِي مَا دَامُوا عَلَى مَا وَصَفَ، فَسَالِمْهُمْ وارض منهم بالمساكنه، ولا تُهيجهم مَا لَمْ يُهِيجُوكَ"[(١)].

ولما دخل عياض بن غنم الرّها وصالح أهلها، عمل له بطريقها وليمة كبيرة في كنيسة المدينة، ولكن عياض أبى أن يحضر داخل الكنيسة تأسيًا بعمر حينما قدم بيت المقدس، فرأى عياض من البطريق تحيرًا، فأدرك سبب ذلك، فقال له: "أيها البطريق، إنما أنت تفعل بنا ذلك خوفًا على أرضك، وإنما يجب عليك أن تفعل هذا بمن يأتيك من بعدنا، فأما نحن فقد وفَّينا لك بالصلح، فلا تخف منَّا ظُلمًا ولا أن نُحَمِّلك ما لا تُطيق، فانطلق البطريق إلى أصحابه وهو يقول: هذا أفضل رجل يكون!"[(٢)].

ولما رأى شهربراز ملك الباب عِفَّة الفاتحين وصدق نيتهم قال لعبدالرحمن بن ربيعة : "وأيمُ الله لأنتم أحبّ إليَّ مَلَكَة من آل كسرى ... وأيم الله لا يقوم لكم شيء ما وفيّتم ووفَّى ملكُكم الأكبر"[(٣)].

النتائج

١- بعد التَّمعُّن في تعريفات مصطلح (العقيدة العسكرية) ظهر للباحث أنها تنقسم على قسمين هما: المبادئ، والأساليب. وتم اختيار مفهوم المبادئ من هذا المصطلح، والذي حدده الباحث بالأهداف العليا التي انطلقت منها عمليات الفتح في عصر الراشدين؛ وذلك لأن جميع المفاهيم والقيم والمنطلقات الأخرى هي متفرعة عن هذا النوع.

٢- لا يشك أي منصف اطلع على أخبار الفاتحين

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٧٢- ١٧٣.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ١/ ٣٣١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٦٠.

في سمو هدف العقيدة العسكرية في عصر الراشدين، وأن ملخّصها هو أن الجهاد دعوة وهداية وخير وصلاح للبشرية جمعاء، بل هو في مصلحة أهل البلاد المفتوحة خير منه للفاتحين أنفسهم، ففيه تحريرٌ للنَّاس من العبودية لغير الله، وإزالة للعوائق أمام الدُّعاة لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض، وإزاحة للمتسلطين والمتجبرين الذين يستعبدون العِباد ويفسدون في البلاد، ويمنعون وصول كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ للبشر الذين يحكمونهم، وحماية للمنتسبين لدين الإسلام من بطش المخالفين، وكل ما يخدم الصالح البشري بعامة، وليس من مقاصد الفاتحين الاستعمار والتوسع والبحث عن المادة، أو أي مقاصد دنيوية أخرى، وفي أخبار القيادة والقادة والجند ونزاهتهم وأمانتهم وزهدهم في الماديات ما يؤكد هذا المعنى، وقد شهد لهم أعداؤهم بذلك.

٣- إن الدَّارس للعقيدة العسكرية في عصر الراشدين يوقن بأنّ هدف الجهاد هو إعلاء كلمة الله تعالى، بما يحمله هذا الهدف من مضامين متعددة - ذُكرت في البحث - وإنّ أية وسيلة مشروعة لتحقيق هذه الغاية تتناسب مع ظروف العصر هي التي يجب أن تُسلك، وأية وسيلة أخرى قد تُتخذ ذريعة لتشويه الإسلام أو حرب أهله واحتلال أوطان المسلمين يجب إعادة النظر فيها، بل على علماء الأمة إصدار فتاوى حولها، وهذا كحال الاستضعاف في مكة، حينما نهى الله تعالى المؤمنين عن القتال، أو مراعاة الرسول ﷺ لسمعة الإسلام حينما كان يُكرر: "لا يتحدث النَّاس أن محمدًا يقتل أصحابه"، ووسائل إبلاغ الدِّين للعالم في هذا العصر متيسرة ومتنوّعة، ولكن التقصير من المسلمين أنفسهم، ولا يعني تخليهم عن الوسائل النافعة والناجعة ركوب وسائل ثبت ضررها وشرّها على الإسلام والمسلمين، وهذه وجهة نظر من خلال التَّمعّن في أخبار الفتوح، وليست حكمًا فقهيًّا يُصدره الباحث، والكلام منصبّ على إبلاغ الدين فقط، أما ردّ العدوان فلا يختلف في دفعه بشتى الوسائل المشروعة أحد، وعلاقة الدولة المسلمة بغيرها له تفصيله ونقاشه الطويل في كتب الفقه.

٤- الأصل في العقيدة العسكرية في عصر الراشدين هو السِّلم، ومحاولة تجنب الحرب قدر الاستطاعة، وقد تضمنت وصايا القيادة تعليمات دقيقة تؤكد على تجنب إراقة الدماء إلا عند الضرورة القصوى، وتُشدّد على القيم الإنسانية التي لم تعرف لها البشرية مثيلاً، من مثل تحقيق الهدف الأعلى بأساليب نزيهة، وعدم ارتكاب أبسط المخالفات حتى في حقوق الحيوان، فضلاً عن الإنسان، وعدم التعرض للمسالمين والضعفاء والنساء والشيوخ والأطفال، بل إنّ القيادة كانت

تحاسب بشدة أي انتهاك للتعاليم السَّامية التي تُصدرها، ولو كانت تلك المخالفات لفظية، كما تُغلّب القيادة أي مصالحة تحفظ الدِّماء ولو كان الفاتحون هم الغالبون، وكان القادة لا يبدؤون بأي قتال إلا بعد الإنذار والإعذار بوسائل متعددة، ثم التفاوض ومنح وقتٍ كافٍ للعدو ليراجع نفسه قبل اتخاذه لقرار القتال.

٥- إن ما يُعمل باسم الإسلام من تقتيل وتفجير، وتقطيع للرؤوس والأطراف، وتحت مسمّى الجهاد، وليست غايته واضحة، ولا أهدافه محدّدة، ولا نتيجته متحقّقة، هو عبث يشبه عمل العصابات ولكنه يرفع شعارًا برَّاقًا تاقت له الشّعوب الإسلامية لكثرة ما أصابها من الظلم والتسلّط من أعداء الدَّاخل والخارج، وهذا لا يُبرر مثل تلك الأعمال؛ لأن الجهاد له غاياته وأهدافه وضوابطه التي تُستمد من الوحيين وعمل الراشدين، وإنّ ما يُسمى (الجهاد المعاصر) من أكثر المفاهيم الشرعية التي تتعرض لتشويه التأويل والاستعجال في التنزيل، والحرب عليه من المرجفين؛ فذاقت الأمّة الإسلامية منه الوبال، وعلى العلماء الصّادقين أن يقوموا بدورهم، فيُبيّنوا الحق، ويُبطلوا الباطل ولو كره الكارهون.

٦- من يطّلع على أخبار الفتوح وتصرفات الفاتحين، ويتعمق في فهم المقاصد والغايات، يُدرك أن جانب الرَّحمة والشَّفقة على البشرية والأخذ باللين وتغليب الهدف الأعلى، وهو هداية الناس، كان هو السائد في عصر الراشدين، لا كما يصوّر البعض الجهاد بأنّه شدّة وقسوة وتنكيل بالمخالفين؛ بحجة إرهاب الأعداء، حتى أنّ بعضهم لا يحفظ من السيرة النبوية إلا "جئتكم بالذَّبح". والحق أنّ الفاتحين يحتاجون في بعض المرّات إلى شيء من الشِّدة، لظروف حربية خاصة، لا يمكن فهمها إلا بإدراك سياقها التاريخي، ولا يمكن معرفة ذلك إلا باسترداد الحدث كما هو في ذلك الزمن، لا بفصله عن مجمل الأحداث المحيطة به، مع التنبه أنّه ليس كل ما ورد في مرويّات الفتوح يُسلّم به، ولكن يُنظر للأغلب الأعمّ، أما التفاصيل فكثيرًا ما تقع فيها المبالغات، وذلك مثل أعداد القتلى في صفوف الأعداء، وحكاية بعض الأخبار عن شجاعة بعض المحاربين في إثخانهم وقسوتهم ضد المواجهين، أما في الجانب الآخر فإنّ المستفيض والغالب هو تغليب الرَّحمة والشفقة على البشرية حتى ولو كان بعضهم مُحاربًا، وإن وقع في بعض أخباره زيادات ومبالغات، ولكنه يبقى بمجمل أحداثه هو الهدف البارز، ومن ثَمّ فإنّه إذا أدركنا الهدف استدللنا على الوسيلة المناسبة لتحقيق ذلك الهدف، وإنّ هداية البشرية لا يأتي بالترهيب والتقتيل والتشريد.

٧- لا بد من التأكيد على أنّ استنباط الأحكام من الأحداث التي جرت في عصر السِّيرة أو

الراشدين لا يجوز إطلاقًا اقتطاعها من سياقها التاريخي، أو الاقتصار على جزء منها دون ردّ بعضها على بعض، وهذا ما زاغت به كثير من الأفهام، وضلت به عقول رجال يظهر منهم أنهم ذوي أحلام، نسأل الله السلامة والعافية، فمن يتمعّن في أخبار الفتوح يتيقّن أن الهدف هو الهداية والرشاد والرحمة والخير لجميع البشر، ولا إكراه في الدين، ولا اعتداء إلا على المعتدين، وأن السِّلم هو الأصل في الإسلام، وإن رأى بعض الفقهاء غير ذلك.

٨- ويرتبط بما سبق أنه عند النظر في أخبار الفتوح يجب فهمها وفق منهج الاسترداد التاريخي، أي معايشة زمنها الذي وقعت فيه، وليس فهمها وفق معطيات العصر الحاضر، وما سبب كثير من الانحرافات الفكرية إلا فهم واقع جرى قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة بما نُعايشه الآن، وهذا مثال فيما نحن بصدده، فحينما كان الرسول ﷺ يُسَيِّر السَّرايا والبعوث عندما قدم إلى المدينة ،كان من ضمن أهدافه إقامة الأحلاف والمعاهدات مع المحيطين بالمدينة؛ حتى يقطع الطريق على قريش فلا تتآمر معهم ضد المسلمين، وهذا لم يكن يتم إلا بتلك الوسيلة، وكذلك فإنّ الدِّفاع عن النفس في ذلك الزمن يستلزم المبادأة؛ فالهجوم من الآخرين كان متوقعًا في أي لحظة، فلم تكن فيه معاهدات ولا منظومات دولية تقف أمام المعتدين، فليس من الحكمة ولا من السياسة ولا من التدبير السُّكون لحين استكمال العدو تحقيق مراده مع توقّع الهجوم، أما في العصر الرّاهن فتجري الأمور بالطرق الدبلوماسية ووفق الاتفاقيات الدولية والمنظمات العالمية، كما هو معلوم، ومثله ما جرى في عصر الراشدين حينما كانت جيوشهم تواجه القوى المختلفة، فكل من رضي وعاهد وسالم، تركوه في حال سبيله ولا يتعرضون له، بل يجد من الدولة الإسلامية العدل والأمان والحماية، ومن هنا نقول إنّ الغايات التي انطلقت منها عمليات الفتح في عصر الراشدين كانت تتحقق بالوسائل المناسبة لذلك العصر، وأكبر دليل على ذلك هو تحقق المراد من هدف الجهاد، أما من يرفعون غاية حميدة في هذا العصر ويسلكون وسائل تدميرية تؤدي إلى نتائج كارثية على الإسلام والمسلمين فليس هذا من الجهاد على بصيرة، بل هو من الإفساد الذي نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فالوسائل يجب النظر فيها إلى مآلاتها وليس إلى شرف الغاية فقط، كما هو مقرر في أصول الشريعة، وهذا لا يتأتى إلا بفقه دقيق، يقول ابن القيم: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط به علمًا. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع،

وهو فهم حُكْم الله الذي حَكَم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر"[١].

المصادر

- **القرآن الكريم.**
- **ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ)**

١- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

- **أحمد، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ)**

٢- فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، جدة، دار العلم، منشورات جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

- **ابن أخي مِيْمِي الدَّقَّاق، محمد بن عبدالله (ت ٣٩٠هـ)**

٣- فوائد ابن أخي ميمي الدقاق، تحقيق: نبيل جرار، الرياض، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).

- **الإدريسي، محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ)**

٤- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

- **الأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبدالله البصري (ت نحو ١٦٥)**

٥- فتوح الشام، تحقيق: وليم ناسوليس الإيرلاندي، كلكتا، مطبعة ببتست مشن، ١٨٥٤م.

- **الأزهري، محمد بن أحمد الهروي (ت ٣٧٠ هـ)**

٦- تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

- **ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي (ت نحو ٣٢٠هـ)**

٧- الفتوح، حيدر آباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، وتحقيق: علي شيري، بيروت، دار الأضواء، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ (١٩٩١م).

- **البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)**

٨- الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

- **بطال الرِّكْبي، محمد بن أحمد (ت ٦٣٣هـ)**

٩- النظم المُسْتَعْذب في تفسير ألفاظ المُهَذَّب، تحقيق: مصطفى سالم، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤٠٨، ١٤١١ هـ (١٩٨٨، ١٩٩١م).

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق، مشهور آل سلمان، السعودية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢/ ١٦٥.

- **البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ)**

١٠- المسالك والممالك، تحقيق: آدريان وان ليون وأندرو فري، تونس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.

- **البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)**

١١- فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله وعمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

١٢- أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦م).

- **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)**

١٣- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

١٤- السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ (٢٠٠٣م).

- **الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت ٢٧٩ هـ)**

١٥- الجامع الكبير أو سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، ودار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

- **ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني (ت ٧٢٨ هـ)**

١٦- الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد الحلواني ومحمد كبير شودري، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.

١٧- قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، تحقيق: عبدالعزيز آل حمد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ (٢٠٠٤م).

١٨- مجموع الفتاوى، جمع: عبدالرحمن القاسم، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م).

١٩- منهاج السُّنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

٢٠- النبوات، تحقيق: عبدالعزيز الطويان، الرياض، أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م.

- **الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ)**

٢١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

- **الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)**

٢٢- المستدرك على الصحيحين، تحقيق:

مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ (١٩٩٠م).

- **ابن حبان، محمد بن حبان الدَّارمي (ت ٣٥٤هـ)**

٢٣- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ (١٩٩٣م).

- **ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)**

٢٤- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه.

٢٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، وإخراج وتصحيح محب الدين الخطيب، وبعض تعليقات عبدالعزيز بن باز، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩ه.

- **أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داواد (ت ٢٨٢هـ)**

٢٦- الأخبار الطوال، تحقيق: عبدالمنعم عامر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٠هـ.

- **ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)**

٢٧- المقدمة، تحقيق: عبدالسلام الشدادي، الدار البيضاء، بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

- **خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفري الشيباني (ت ٢٤٠هـ)**

٢٨- تاريخ خليفة، تحقيق: أكرم العمري، الرياض، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

- **الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)**

٢٩- تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م).

- **الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)**

٣٠- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

٣١- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دمشق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

- **الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)**

٣٢- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي سيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).

- **الزبيري، مصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦ هـ)**

٣٣- نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

- **أبو زرعة الدمشقي، عبدالرحمن بن عمرو (ت ٢٨١ هـ)**

٣٤- تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق: شكر الله القوجاني، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٨٢م.

- **الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (ت ٥٣٨ هـ)**

٣٥- الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

- **ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد (ت ٢١٥هـ)**

٣٦- الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

- **ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ)**

٣٧- الطبقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ (٢٠٠١م).

- **ابن السَّري، هنَّاد بن السَّري التميمي الكوفي (ت ٢٤٣هـ)**

٣٨- الزهد، تحقيق: عبدالرحمن الفريوائي، الكويت، دار الخلفاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

- **ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت٢٤٤هـ)**

٣٩- كتاب الألفاظ، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

- **سعيد بن منصور، أبو عثمان الجوزجاني (ت ٢٢٧هـ)**

٤٠- سنن، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الهند، الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م).

- **ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ)**

٤١- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م).

- **ابن شبة، أبو زيد عمر (ت ٢٦٢هـ)**

٤٢- أخبار المدينة، تحقيق: فهيم شلتوت، جدة، دار الأصفهاني، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ.

- **ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد (ت ٢٣٥هـ)**

٤٣- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ه. وتحقيق: محمد عوّامة، جدة، دار القبلة، ودمشق، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م).

- **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)**

٤٤- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، الطبعة من الثانية إلى الرابعة.

- **ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧ هـ)**

٤٥- فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٤١١ه/ ١٩٩١م، وهي مصورة عن طبعة المستشرق توري، ليدن، ١٩٢٠م.

- **ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧هـ)**

٤٦- العقد الفريد، اعتنى به: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

- **أبو عبيد، القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤هـ)**

٤٧- الأموال، تحقيق: خليل هراس، بيروت، دار الفكر.

٤٨- غريب الحديث، تحقيق: محمد عبدالمعيد خان، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م).

- **ابن عساكر، علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ)**

٤٩- تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو العمروي، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).

- **العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت نحو ٣٩٥هـ)**

٥٠- التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق: عزة حسن، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

- **ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء (ت ٣٩٥هـ)**

٥١- معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

- **ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ)**

٥٢- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

- **الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)**

٥٣- القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).

- **ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)**

٥٤- عيون الأخبار، تحقيق، منذر محمد أبو شَعْر، بيروت وعمّان، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م).

٥٥- غريب الحديث، تحقيق: عبدالله الجبوري، بغداد، مطبعة العاني، الطبعة الأولى، ١٣٩٧ هـ.

- **القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)**

٥٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

- **قوَّام السُّنة، إسماعيل بن محمد الأصبهاني (ت ٥٣٥هـ)**

٥٧- دلائل النبوة، تحقيق: محمد الحداد، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

٥٨- سير السلف الصالحين، تحقيق: كرم أحمد، الرياض، دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م).

- **ابن القيم، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)**

٥٩- أحكام أهل الذِّمة، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، الدمام، رمادي للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).

٦٠- إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق، مشهور آل سلمان، السعودية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٦١- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق: محمد الحاج، جدة، دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).

- **ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)**

٦٢- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، الرياض، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م).

٦٣- البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله التركي، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).

- **مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)**

٦٤- الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م).

- **ابن المبارك، أبو عبدالرحمن عبدالله (ت ١٨١هـ)**

٦٥- كتاب الزهد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، وتوزيع دار الباز بمكة.

- **المروزي، أحمد بن علي بن سعيد (ت ٢٩٢هـ)**

٦٦- مسند أبي بكر الصديق، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

- **مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)**

٦٧- المسند الصحيح المختصر من السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبالباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

- **المعافى الموصلي، أبو مسعود المعافى بن عمران (ت ١٨٥هـ).**

٦٨- كتاب الزهد، تحقيق: عامر صبري، بيروت، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م).

- **المعافى بن زكريا، أبو الفرج النهرواني الجريري (ت ٣٩٠هـ)**

٦٩- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق: محمد الخولي وإحسان عباس، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

- **معمر بن راشد، أبو عمرو الأزدي (ت ١٥٣هـ)**

٧٠- الجامع، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مطبوع مع مصنف عبدالرزاق، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ه.

- **ابن منده، عبدالرحمن بن محمد بن إسحاق (ت ٤٧٠هـ)**

٧١- المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الناس للمعرفة، تحقيق: عامر التميمي، البحرين، وزارة العدل والشؤون الدينية البحرينية، د.ت.

- **ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)**

٧٢- لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه.

- **أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)**

٧٣- دلائل النبوة، تحقيق: محمد رواس قلعه جي وعبدالبر عباس، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

٧٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، مكتبة الخانجي، وبيروت، دار الفكر، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).

- **النويري، أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)**

٧٥- نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م).

- **الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ)**

٧٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).

- **ياقوت، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ)**

٧٧- معجم البلدن، بيرت، دار صادر، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

- **أبو يعلى، أحمد بن علي الموصلي (ت ٣٠٧هـ)**

٧٨- مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين أسد، جدة، دار المأمون للتراث، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ (١٩٨٩م).

- **أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ)**

٧٩- الخراج، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

المراجع:

- **أوهانلون، مايكل**

٨٠- الجديد في العقيدة العسكرية الأمريكية، مجلة آفاق المستقبل، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو

ظبي، سبتمبر/ أكتوبر، السنة الثانية، ٢٠١٠م، العدد: ٧.

- **جب، هاملتون**

٨١- دراسات في حضارة الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.

- **الحديثي، نزار عبداللطيف**

٨٢- الأمة والدولة في سياسة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، بغداد، دار الحرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

- **حسن، حسن إبراهيم**

٨٣- تاريخ الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٦٤م.

- **حسين، أحمد حسن**

٨٤- العقيدة العسكرية الإسلامية دراسة ومنهج ومقارنة، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).

- **الحيالي، نزار إسماعيل، وياسين، عمار حميد**

٨٥- قراءة في المذهب العسكري الروسي بين الماضي والحاضر، مجلة الدراسات الدولية، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، السنة: ٢٠١٣م، المجلد: لا يوجد، العدد: ٥٦.

- **خطاب، محمود شيت**

٨٦- العسكرية العربية الإسلامية عقيدة وتاريخًا وقادة وتراثًا ولغة وسلاحًا، كتاب الأمة، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٣ هـ.

- **الخلفات، جمال يوسف، وأسعد، بهاء الدين محمد**

٨٧- العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، الزرقاء، مكتبة المنار، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

- **السامرائي، عبدالجبار محمود**

٨٨- معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، بيروت، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

- **سرور، محمد جمال الدين**

٨٩- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي.

- **سعيدوني، ناصر الدين**

٩٠- الفتوحات الإسلامية وأثرها في مجتمع الجزيرة العربية، بحث مقدم للندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ١٥-٢١ محرم ١٤٠٤ه، الرياض، قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الكتاب الثالث، الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، الجزء الأول.

- **سويد، ياسين**

٩١- الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ (١٩٩٠م).

- **الشامي، أحمد**

٩٢- الخلفاء الراشدون، بيروت، المركز العربي للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

- **العلياني، علي بن نفيع**

٩٣- أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

- **العمار، منعم صاحي**

٩٤- العقيدة العسكرية العراقية الجديدة، مجلة قضايا سياسية، جامعة النهرين، السنة: ٢٠١١م، المجلد: ٢٣-٢٤، الإصدار: ٢٣-٢٤.

- **فرج، محمد**

٩٥- المثنى بن حارثة الشيباني فارس بني شيبان، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، د.ت.

- **فروخ، عمر**

٩٦- تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.

- **كريستنسن، أرثر**

٩٧- إيران في عهد الساسانيين، ترجمة: يحيى الخشاب، ومراجعة عبدالوهاب عزام، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت.

- **لسترنج، كي**

٩٨- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة وعناية: بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بيروت، مؤسسة الرسالة.

- **محفوظ، محمد جمال الدين علي**

٩٩- النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨١م.

١٠٠- الجانب العسكري من حياة الرسول ﷺ، بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، الدوحة، محرم ١٤٠٠هـ، عُني بطبعه ومراجعته عبدالله الأنصاري، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ (١٩٨١م) ج٤.

- **مشتهى، أسعد ماجد**

١٠١- العقيدة القتالية عند اليهود وموقف الإسلام منها، أطروحة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة لم تُنشر، غزة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م).

- **والمصري، جميل بن عبدالله**

١٠٢- دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، دمشق، دار القلم، وبيروت، الدار الشامية، د.ت.

- **مصطفى، إبراهيم، وآخرون**

١٠٣- المعجم الوسيط، القاهرة، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشر دار الدعوة.

- **ياسين، محمد نعيم**

١٠٤- افتراءات حول غايات الجهاد، بيروت، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

- **ياسين، نجمان**

١٠٥- تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، العراق، بيت الموصل، ١٩٨٨م.